مكتبة نوميديا 198
Telegram@Numidia_Library

مَاضِي

رواية

أحمد الزناتي

وزارة الثقافة

الهيئة
العامة
لقصور
الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د.أحمد عواض

أمين عام النشر
جرجس شكرى

رئيس الإدارة المركزية للشئون الثقافية
ممدوح أبو يوسف

مدير عام النشر
عبدالحافظ بخيت

الإشراف الفنى
أ.د.إسلام عبد الحميد زكي

• ماضي
• أحمد الزناتي

الهيئة العامة لقصور الثقافة
القاهرة 2018م
19.5X13.5سم

•تصميم الغلاف: نسرين محمود
•المراجعة اللغوية: آيات عبد الباقي
• رقم الإيداع:
• الترقيم الدولى:
• المراسلات:
باسم/ مدير التحرير
على العنوان التالى: 16أ شارع أمين سامى- قصر العينى
القاهرة-رقم بريدى 11561
ت:22794789.

•الجمع والإخراج:
وحدة التجهيزات الفنية
الإدارة العامة للنشر

•الطباعة:
مطابع دار المعارف

مَـاضِـي

".. ولماذا لا تَحكمون بالحق مِن قِبَلِ نفوسِكم؟

حينما تَذهب مع خصمِكَ إلى الحاكِم، ابذلْ الجهدَ وأنتَ في الطريق لتتخلصَ منه؛ لئلا يَجرك إلى القاضي، ويسلّمكَ القاضي إلى الحاكِم، فيلقيكَ الحاكمُ في السجن، أقولُ لكَ لا تَخرجْ مِن هناك حتى توفِّ الفلسَ الأخير".

(إنجيل لوقا ١٢: ٥٧-٥٩)

***

"للحقيقة بِنية قصة خيالية"

(جاك لاكان.. كتابات - الجزء الثاني)

(الفصل الأول)

احضنوا الأيام لتجري من أيدينا[1]

كلمات: سيد مرسي

بعدَ وفاة زوجتي منذ سنتيْن تقريبًا، لزمْتُ شقتي ملازَمةً تامة. وأقولُ تقريبًا لأنني لا أريدُ تَذكّر التاريخَ بدقّة. لا أخرجُ إلا للضرورة القصوى. ولم يكن ذلك مُزعِجًا؛ فبِقَالة عم "شحاتة" أسفل المنزل، أُدلِي السبَتَ الخوص مساءَ كلّ خميس، فيضع فيه التموينَ المتفق عليه، دون أن نتبادلَ كلمة. بنصفِ جسدٍ مائلٍ فوق سورِ الشرفة، أراه يَمُدّ يدَه بحركةٍ آلية داخل السبَتِ وهو يدخن سيجارة، أو يحاسِب زبونًا، أو يتحدثُ في الموبايل. يُخرِج النقودَ مزمومةً في مِشجب غسيلٍ مدفوسٍ في مقدمةِ جوربٍ قديم لزوم التمويه. يأخذ المالَ ويضع التموين. وقد أضعُ فوقَ الجوربِ جوربًا آخرَ باليًا، إمعانًا في إظهار النصاحة.

أسكنُ في شقةٍ بالطابق الأخير، صِلَتي بالحياة حَبلٌ ممدودٌ بيني

(١) استهللْتُ فصول الرواية بجُملٍ مأخوذةٍ مِن أغاني لوردة الجزائرية

وبين البَقال؛ لا يهتزّ الحَبل إلا كلّ خميس في السابعة مساءً. يَصعد لفوقٍ ثمّ يَنزل لتحت. ويبقَى على وضعِه حتى الخميس التالي. كثيرًا ما كنتُ أتخيل الحبلَ موصولًا من نقطةٍ خفيةٍ مثبّتةٍ في أحد أركان السُّحُبِ الصامتة، ليمُرّ بشُرفة شقتي. منتهيًا عند دكان "شحاتة". لم أكنْ أرى شيئًا حينَ كنتُ أنظرُ للسماءِ؛ التي كانت صامتةً على الدوامِ، كما لو كانت تُدير ظهرَها نحوي، كما اعتادتْ أنْ تفعلَ. تموين الأسبوع ثابت، ربع جِبنة رومي بَطارخ، نِصف جبنة براميلي، نِصف بسطرمة، رُبع مخلل مشكل، بخمسة جنِيه عيش فينو سِن، وبثلاثة جنيهات خُبز بلدي، نِصف كرتونة بيض بلدي، علبة شاي ٤٠٠ جرام، نصف كيلو سُكّر وعلبتين من السجائر المَحلي، زجاجة ملفوفة بإحكامٍ وعناية بورق كرتون زيتي غامق.

قاطعتُ اللحومَ والدواجن منذ وفاة زوجتي، لا أعرفُ الطبخَ، ولمْ أُرزَق بأطفالٍ. مَصدر دخْلي الوحيد معاشي مِن وزارة التربية والتعليم وقيراطان مزروعان خضروات في إحدى قرى سوهاج حيث ولِدتُ، يَسرِقُ أخي "سلامة" إيرادَهما ولا يُرسِل إلا ألفَي جنِيه سنويًا، يَعني ١٦٦ جنِيه شهريًا، قيمة إيجار الشقة التي أعيش فيها. "سلامة" لئيمٌ، صحيح هو أخي الأكبر والأقل تعليمًا. لكنه صعيدي قراري، لا يُسبَر غورُه، يَعرف أنني لا أحتاج سوى مكان يأويني، وغير ذلك لا يهم.

كلانا يَعرف أن كلانا يعرفُ أنّ إيرادَ المحصول خمسة أضعاف ذلك المَبلغ. لكنني سئِمتُ النزاعَ، أو لمْ أعُد أستمتِع به.

في العادة لا أَخرج إلا صباحَ يومِ الجمعة لشراء الأهرام. ليست الجريدة ما يُهمني، بل ملحق الإعلانات وملحق الجمعة، وهو ما يضمن لي زيادةَ عدد الصفحات التي أستخدمها كفَرشٍ على طاولة الطعام في الصالة. ثلاث وجبات وثلاثون صفحة مقسّمة على سبعة أيام. الإفطار صفحة، والغداء صفحتان، والعشاء صفحة واحدة. على الرغم من أنني لا آكل اللحومَ ولا الفراخ وبالتالي لا أحتاج ورقتين في وجبة الغذاء، إلا أنني أتسلّى بقراءة بريد الجمعة أثناء الغداء وتناولِ النبيذ. كلها قصص وهمية. كلهم يَكذبون. تتبقى صفحتان لزوم تنظيف مِرآة الحمّام كل يوم أحد، وهي عادةٌ ورِثتُها عن أمّي. وبعدَ رحيلها، أصبحت الأمورُ أكثرَ صعوبة. بقيتُ أجتَرُّ الذكرياتِ على مدار تسعة شهور، حتى جَفّ ضِرع ذكرياتي، فآثرتُ الاحتفاظَ ببقايا مِنها، أقتاتُ به على استحياءٍ لِمَا قد بقيّ مِنَ العُمْر. وبوفاةِ رجاء، انقطعتْ علاقَتي بالحياة خارجَ جدران شقّتي، وبدأتُ أنسِجُ عالمًا خاصًا لا يفهمُ مفرداتِه سوايّ، ولا يعرِف دروبَه غيري. كانتْ الشقة هذا العالَم، ومائدةُ الطعام الصغيرة في الصالة مركزَهُ، والكَنَبة القديمة والبطانية الحمراء المخططة رَحِمَهُ الذي ألوذُ داخِلَه.

حينَ أخافُ. لمْ تواتِني الجرأةُ على النومِ في سرير رجاء بعدَ وفاتها. توفيّتْ في أوائلِ شهرِ يونيو، كأنها تُذكِّرُني بنكسةٍ أخرى تضافُ إلى نكساتِ الذاكِرة. كانت شُرفة الشقة بَحَرية، فأتاح لي ذلك النومَ فوقَ الكنبة وباب النافذة مفتوح، إذ كان هواءُ مروحةِ السقف الضخمة في الصالة والتيارُ القادِمِ مِن شبّاكِ الشُرفة يصنعان تيارًا لا بأسَ به، يُلطِّفُ مِن الحراراة قليلًا. ومنذ دخول الشتاء قبل شهرين أصبحتُ أقيمُ إقامةً كاملةً في الصالة أمامَ التليفزيون، حتى السّخان الكهربائي جلبتُه مِن المطبخِ ووضعتُه فوقَ الطاولة أمامي، إلى جِواره الشاي والسكّر والقِرفة. الثلاجة أمامي في الصالة، وفيها أخزّن الجبن والبسطرمة والبيضَ والخبز البلدي والفينو والتونة. الجِدار الأبيض المواجِه كان مثلَ شاشة عرضٍ سينمائية كبيرة، أستحضِرُ فوقَها الزمنَ الآخر. أُغمِضُ عينَي وأنا أشمّ أوراقَ الريحان المفروكة في يدي، فيأتي الزمان صاغِرًا. وأفتحُ عينَي فإذا بالزمنِ يتجسّدُ أمامي بكل تفاصيله الصغيرة وألوانِه؛ المَدْرَسة وحصص التاريخ وتلامذتي وذِكرياتي معَ رجاء، وسَفري فترةً قصيرةً إلى ليبيا للعملِ مُدرّسًا، ثمّ عودَتي بعد بضعة شهورٍ ليقيني أنني لا يُمكِنُ أنْ أعيشَ دون رجاء، ولا التردّد بصفة دائمة على بيتِ الضاهر، حيث العالَمُ الحقيقي. العالَمُ كما ينبغي أن يكون. كنتُ أستحضِر المَدْرَسةَ وفصولَها.. الحصّة الأولى كانت دائمًا حِصّة تاريخ. تبدأ الحصّة في الثامِنة

والنِصف حتى التاسعة والرُبع. يدقّ الجرَس. فألملِم أوراقي وأنصرِف. وهكذا، في تمامِ الثامِنة والنصف صباحَ كلّ يوم، تقريبًا، أجلس فوقَ الكنبة بعد تناول فطوري، وأضبِطُ المنبّه على التاسعة والنِصف.

التاريخ...

دَرْس اليوم....

الفراعنة..الأُسرَات..إيزيس ..أوزوريس....

بعدَ مُضيّ أشهرٍ، بدأتُ أشعرُ بشوقٍ عجيبٍ إلى الشقة؛ إلى حجرتَيها الصغيرتيْن، المطبخِ الذي كنتُ أزوره نادِرًا، حجرةِ الصالون التي كانت مغلقةً على الدوام، وكنّا نخزّن داخلها أشياءَنا القديمة؛ البطاطين الشتوية، وكُتُبَ التاريخ، كؤوسَ التشجيع التي حصلتُ عليها مِن الوزارة بصفتي مُعلّمًا مثاليًا --مثاليّ فعلًا- وأشياءَ أخرى لم تَعد لها قيمة، مثلَ سرير أطفالٍ قديمٍ كانت المرحومة رجاء قد اشترته في بداية زواجِنا منذ أكثرَ مِن ثلاثين سَنة، على أملِ طفلٍ قادِمٍ لم يأتِ للعالَمِ أبدًا.

انقَضَت فترةٌ طويلةٌ كانت إقامتي محصورةً خلالها في الصالةِ، فوقِ الكنبة، وبينَ دورة المياه بسبب مرضَ السكّري. وبالتدريج بدأتُ أنسَى ملامِحَ الشقّة. لم يكن ذلك مردّه خللٌ في الذاكرة، فذاكرتي ما

تزال بحالةٍ جيدةٍ للأسف، فطالما تذكّرْتُ أشياءَ لا أريدُ تذكّرها. كان النسيانُ نابعًا مِن فواتِ الحبيب. فالأشياءُ التي أحبّها، كنتُ أحبّها لأنّ رجاء كانت تحبّبها إليّ، وتُرَغّبُها إليّ. فالمطبخُ مثلًا على الرغمِ مِن صغرِ حجمه، واضطرارِنا للوقوفِ متجاورَيْن فيه، إلا أنني أحببتُ الوقوفَ في المطبخِ، لأنها كانت تطلبُ مني الوقوفَ خلفها، ملتَصِقًا بها، وهي تقلي البطاطس أو الباذنجان في ليلة شتويةٍ بارِدة. فَأحسُّ حرارةَ لحمِهَا وجسدِها الدافِيء على الدوامِ، وكانت حين تعصرُ البرتقال البلدي بيدها، تقدّمه لي وتقول: اشربْ مِن عرق يدي، فأشربُ ما يتساقطُ مِن عرقِ يدِها، وأضمّها ونغيب.

في ليلةٍ كانت تعصرُ فيها لنا برتقالًا بلديًا، وكنتُ أنا في الصالة أشاهد التليفزيون، منتظرًا العشاء: البطاطس المحمرة والباذنجان المقلي والفول الحِراتي والعسل الأسود. وجدتها تُقبِل نحوي ببطيءٍ، حامِلةً مِلعقةً صغيرةً. اقتربتْ مِني وقالت: افتحْ فَمَكَ واشرب قطرتيْن مِن العصير. فتحتُ فمي وشربتُ القطرتيْن. لَمْ أسألها لماذا فعلتِ ذلك، وما تفسيره؟ حّيرني الأمرُ حتى أن انتهينا مِن العشاء. سألتها، فأجابت: حتى تتذكّر عصير البرتقالِ مِن يدي... سرّ السعادة في الأشياء الصغيرة يا ماضي.

وهكذا أحببتُ مطبَخَنا الصغير مِن موقفٍ صغيرٍ. وكانت تُبقي

على نافذة المطبخِ مفتوحًا بعدَ أن تضع على إفريز الشبّاك، عودان مِن الريحان الأخضر. فتهبّ ريحُ الشتاء الباردةِ وتأخذُ معها روح الريحان.

لكن رجاء قد رحلَتْ، ولا أجدُ مَنْ أتدفأ بجسدها في هذه الليالي الباردة، ولا مَنْ يضعُ ريحانًا فوقَ شباكِ المطبخ. كان نسياني لملامحِ الشقّة سببه أنّ ذلك العالمِ الذي كانت رجاء تملؤه اختفي.

ففكّرتُ في رسْمِ مسوّدةٍ بتفاصيلِ الشقّة، وكأنني أخوضُ معركةً ضد النسيان. ثمّ قادتني فكرةُ رسمِ المخطوطة إلى كتابة قصّة حياتي، أو على الأقلّ كتابة مذكّرات قصيرة، أحكي فيها بنفسي ولِنفسي؛ كي أجدّدَ أنفاسي الميّتة، لأحارِبَ الاكتئاب، لأقِيَ جِلدي صقيعَ شتاء ديسمبر وحدي في هذه الشقة، لأطمِسَ العاداتِ القديمة وأخترعَ عاداتٍ جديدة، لأكتشِفَ لماذا يتصرفُ البشر على هذا النحو تجاهَ بعضِهم، لأستحضِرَ ذكرياتي معَ مَن أحببتُ، لأرى نفسي، لأكتشِفَ كيف مضت الأيام. أعرِفُ أنّ حكايتي لا تحوي أحداثًا مؤثّرة، لا تحوي انتصاراتٍ ولا بطولات، لأنه لا يوجد صِراعٌ مِن الأساس. أتلكّأ وأنتظِرُ، أتشكّكُ في الجميع وفي نفسي.

يوميات ربما يراها أحدٌ تافهةً. قصّة حياة مُدرّس تاريخ ثانوي، أرمل على المعاش، ماذا قد تحوي؟ ما الذي قد يشدّ القارئَ إلى قصةٍ

كهذه؟ هكذا الحياة كما قال أبي يومًا؛ تضعف الحواس. ننزلقُ في حفرة الحزن، بينما تقفُ ذكرياتنا على حافّة الحُفرة، تنظرُ إلينا وهي تُخرِجُ لسانها. السمعُ يزدحمُ بأصواتِ مَنْ رحلوا، قدرة الشمّ تتناقص ولا نشمُّ سوى غبار الأمسِ. وننظرُ حولنا فلا نرى شيئًا، أو لا نرى سوى ضباب. حتى الأحلام صارتْ عزيزةً، شحيحةً، كأنها هي الأخرى تضنّ عليّ ولو بكوابيس.

استمرّ بيّ الحالُ هكذا حتى لمعَتْ في ذهني فكرة رسمِ المخطوطةِ وتدوين حكايتي معَ الزمان -كما قالت وردة- جائتني الفكرة مِن خبرٍ صغير قرأتُه في أهرام الجمعة الماضي. كان الخبرُ يتحدثُ عن كاتبةٍ كندية معروفة، لا أذكرُ اسمَها الآن، أعدّتْ كتابًا للنشرِ بعدَ مِئة عامٍ، كانت تقول: " فكرة تأليفِ كتابٍ ليُنشَر بعد مِئة سَنةٍ تروق لجانبٍ مِنا، فحينَ كنا أطفالًا، كنا ندفن أشياءَ هنا وهناك، قِطع حُلِي وصناديق صغيرة، على أمل أن يجدها شخصٌ ما في وقتٍ لاحق."

وهكذا قررتُ، إلا أنني يومًا لمْ تواتِني الجرأة على الإقدامِ على هذه الخطوة. كتابة مذكّراتي. كنتُ أنتظِر شيئًا غامِضًا يَحدثَ لي، شيئًا يحفّزُني ويهزّني كي أبوحَ للأوراقِ ما أريدُ. فانتهيتُ إلى رسم مخطوط كروكي لشقتي أولًا، ولأتركَ مَسألةَ كتابة مذكراتي للأيام. إلا أنني طلبتُ مِن "رضا" ابن عمّ شحاتة البقال، شراءَ كميات كبيرة مِن الورق الفارغ.

أعطيته نصف معاشي لهذا الشهر، ثمانمائة جنيه تقريبًا، اشترَى بها "رضا" ورقًا أبيضَ. قالَ إنّه اشتراه مِن مكتبةٍ في الفجالة، ونَقلَها فوقَ شَبكة التاكسي الأبيض الذي يملُكه. استغرقَ الأمرُ حوالي ساعتيْن لينقلَ الورقَ مع البوّاب إلى شقتي. تخيّلتُ للحظةٍ أنّني مَسوس، مجنون رسمي، أو أنني قطعة مِن حطامِ سفينةٍ في المياة العميقة.

فلنَعُد لموضوع رسم مخطّط الشقة؛ تَدخُلُ الشقّة فتجِد خزانةً أحذيةٍ قديمة فوقَها مَفرش بلاستيك، جميعُ أحذيتي مِن محل "خريشة" في شارع نصوح بحدائق الزيتون، كنّا نذهب أنا ورجاء يومَ الجمعةِ بعدَ العصر، نشتري أحذيتنا معًا. كان يبيعُ جواربَ صوفيةً أيضًا، لمْ أكنّ أحِبّها كثيرًا، إلا أنّ رجاء كانت تُصِر على شِرائها لي لأني أذهب لعملي مبكّرًا وعليّ تدفئة قدمَيّ. بعدَها نَخرج للتنزّه، فنجتاز شارع نصوح ونمشي حتى شارع طومان باي أو شارع سليم، نأكل ذُرَة مشوية أو ترمس. وأحيانًا كانت تقودنا أقدامنا إلى كوبري القبة فنأكل سندوتشات فول وطعمية مِن "أبو عِلوة"، الذي سمِعتُ أنّه تحوّل إلى محلٍ آخر. وسطَ الصالةِ أنتريه أسيوطي قديم مكوّن مِن قطعتيْن وكَنبة صغيرة؛ هي الكَنَبة ذاتها التي أعيشَ عليها الآن. ثمّة ستارة خضراء غامِقة مِن القطيفة تفصِلُ الصالةَ عن غرفة نومِنا. تجتازُها فتقابلَ المطبخ الصغير. ومطبخنا غريب، طويل جدًّا إلا أنّه ضيّق جدًّا أيضًا. يبتلعُ

نصفَه "نمليّة" إيديال بيضاء اللون، لمْ تقشَّر منذ أن اشتريناها منذ ثلاثين سَنة. غرفة نومِنا صغيرة، بها سرير خشبي له ظَهر طويل القائمة. ودولاب ملابس بعرضِ الجِدارِ. طالما شكوتُ لها مِن صِغَرِ الدولاب، وطالما كانت تقول: القادِم أحلى يا ماضي.. القادم أحلى.

هناكَ شرفة ملحقة بغرفة نومِنا، صغيرة أيضًا، كانت تتّسِع لنا بالكادِ، وكنا نستعيضُ عنها بإجازة المصيف، إذا أرادت رجاء زيارةَ أسوان. إمّا مصيف أو مَشتى. وكنا سعيديْن.

لقد تجاوزتُ الستين مِن عمري، ولا يوجد داعٍ للكذبِ على نفسي ولا على الآخرين، ولا أعرِف أيّ آخرين؛ لمْ أعدْ أعرِف أحدًا. كانت المرحومة رجاء سعيدةً، وكنتُ أتصنّعُ أمامَها السعادةَ أيضًا. لم أكن سعيدًا مِئة بالمِئة، ولا راضيًا مِئة بالمِئة. كنتُ أعيشُ حياةً رمادية. تَجري الأيام مني وأراها تتسرّبُ مِن بين أصابعي.

أحسستُ وأنا أرسِمُ مخطط الشقة على الورقة البيضاء التي أمامي، أنني أعيد اكتشافَ مدينةٍ منسيةٍ، مدينة وُلِدتُ فيها، ورحلتُ عنها، إلا أنّها لم تتركني.

والحقيقةُ أنني وجدتُ لذةً بالغةً في إعادةِ اكتشافِ عالَمي مِن جديد. وجدْتُ لذة في نسيانِ ملامحِ الشقّة، ثمّ الاشتياق إليها. لذّة ممارسة لعبة الاختفاء والتجلّي، حتى جرَتْ هذه الواقِعة.

يومَ الجمعة الماضي، وأثناءَ ارتدائي للكوفية الصوف استعدادًا للخروجِ لشراء الأهرام، سمعتُ طرقًا خفيفًا على الباب. ولم أكن قد سمعت هذا الصوت منذ وفاة رجاء. كانت الساعة السابعة تقريبًا. فتحتُ الباب، فأطلّتْ امرأةٌ غريبة. كانت في أواخر الأربعينات تقريبًا، ذاتَ شَعرٍ رمادي قصير. كانت طويلةَ القامة جدًّا ونحيفةً جدًّا. كادت ضحكة طائشة تفلِتُ مني، إلا أنني كتمتُها. كانت ترتدي مِعطفًا رماديًا مِن الصوف فوقَ جونلة سوداء قديمة. لم يَبدُ على مظهرها ما يبعث على الخوف، فبعد رحيل رجاء، أصبحتُ مُستعِدًا لكل شيء، أي شيء وكل شيء، بدايةً مِن طردي مِن أولاد صاحِب العمارة لرفضي مغادرة الشقّة برغم المبلغ الطائل الذي عرضوه عليّ لتركِ الشقّة، بحجة احتمالِ انهيار العمارة فوقَ رؤوسنا، وصدور أمْرِ تنكيسٍ لها، مرورًا بكوابيسَ لا تنقطع عن الموت والجحيم، وصولًا إلى هَجّام يقتحم الشقة ليسرقَ التليفزيون أو عدة المحمول العتيقة ثمّ يقتلني بعدَ أنْ يعتدي عليّ.. لا يهم لمْ أعُدْ أخشى شيئًا. أصبحتُ على يقينٍ أنَّ كل الأشياء تقودُ إلى الشيء نفسِه، إلى اللا شيء.

قالت المرأة وهي واقفة على الباب:

– صباح الخير..أنا زوزو ماضي .. مندوبة شركة Past is now للتأمين على الحياة..

- زوزو ماضي وتأمين؟ انتي على كده تبقي بنتي..أنا اسمي ماضي مرزوق

- تحت أمرك يا فندم ..

- ألف شكر يا فندم.. أنا موظّف على المعاش.. لا أحتاج تأمينًا.. ثم إنني أعيش وحدي.

- عفوًا.. الشركة تقدّم عروضًا متميزة يا فندم .. عروض تأمينية متميزة بتقدمها شركتنا.. عروض مميزة لعملائنا المميَّزين ..

- للأسف أنا رجُل على حافّة العالَم .. أنا خارجٌ الآن لشراء أهرام الجمعة .. نتكلم لاحقًا .. وعلى فكرة.. لستُ غنيًا لأدفع لكِ.

- تحت أمرك يا فندم .. لكن شروط الدفع عندنا مختلفة تمامًا.. تمامًا يا فندم .. ممكن الشركة تدفع الـ preimums كلها يا فندم ..

- أفندم؟ شركتكم هي التي تدفع؟ وماذا تستفيد؟ ثمّ أي شركة تعمل يوم الجمعة؟.

- لا أعرف..أنا مجرد مندوبة مبيعات..ممكن تتصل بمدير المبيعات تسأله..حضرتك تَعلم أنّ أجر وردية يوم الجمعة مضاعَف..هذا هو قانون العمل..وصاحِب شركتنا رجُل عادل جدًّا وخيّر جدًّا..حتى اسمه عادل خيري.

– لا والله ... الغريب أنكِ كبيرة قليلًا على هذه الوظيفة.. مندوبة مبيعات!.

– الزمن يا فندم... الزمن..

استأذنتُها في الخروج. كنتُ متخوفًا أنْ ينفخَ بوقُ الشمس في جثة شارعنا، فينشر البشر، متهافتين على محلاتِ الفول والفلافل والعِيش البلدي وباعة البصل الأخضر والجرجير تحضيرًا لإفطار الجمعة. كانت "زوزو ماضي" لطيفة. لم تجادِل ولم تقُل كلمة. انصرفتْ.

مَرّ أسبوع وجاء يوم الخميس التالي. حين جذبتُ السبَت في الساعة السابعة. كان البقال قد وضع تموين الأسبوع وأخذَ المال، لكني لمحتُ ورقةً مطويةً تحت الجورب القديم الذي كنتُ أستعمِله للتمويه. على الأرجح كان خِطابًا مِن المهندس عادل خيري، المدير التنفيذي لمجموعة WAKKAL للاستثمار والتجارة؟ مَن عادل خيري هذا؟ بل مَنْ يعرِف موضوع السَبَتَ؟.

(الفصل الثاني)

آه يا ناعسة وخبّريني يا أبوي
اللّي غرّبنا مين واللّي توّهنا مين
عنيك طول السنين يا عيني عليك طول السنين
كلمات: عبد الوهاب محمد

تأكدتُ مِن إغلاق أبواب الشقة جيِّدًا ومررتُ بأصابعي على باب الثلاجة خشيةَ أن يكون مفتوحًا ويفسد الطعام. جلستُ أشاهد فيلمًا قديمًا. فكّرتُ قليلًا في مضمون الخِطاب الذي وصَلني. لم يكن الخوف مِن مضمون الرسالة ولا مِمّن كتَبها هو الدافع وراء التفكير. فكرة الخروج مِن المنزل أساسًا في يوم غير يوم الجمعة. فكرتُ في أنني ربما أكون قد نسيتُ شكل الشوارع. ومساراتِ الطرُق والمواصلات. وأشكالَ البشر.. هل يكون البشر قد تغيرت أشكالهم خلال العامين الماضيين؟ وإذا كانوا قد تغيروا ففي أي إتجاه؟ هل ما زالوا يعبسون في وجوه بعضِهم؟ أم أنّ الأمر تحوّل إلى سبابٍ وبصاق متبادَل لزوم التحية؟.

نسيتُ أرقامَ الأتوبيسات التي تُقِلّني. كان الدخول إلى القبرِ الذي سأدفَن فيه أهونُ بكثير مِن ركوبي ميكروباص، ليس أمامي سوى

ركوب مترو الأنفاق والنزول في محطة السادات، ثمّ ركوب أية مواصلة أخرى إلى المهندسين. فكرّت في تاكسي، لكن المشوار مِن الزيتون إلى شارع البطل أحمد عبد العزيز سيكلفني ثروة كاملة قد تضطرّني للاستغناء عن السجائر وزجاجةِ النبيذ شهرًا مثلًا.

يئستُ مِن التفكير. شربتُ كأسًا واحدة فقط؛ لأنني شربتُ ثلاثَ كؤوس اليوم على الغداء. ويجب أن تكفيني الزجاجة حتى الخميس القادم. ثمانية وعشرون كأسًا في الأسبوع. كل يوم أربعة كؤوس. على الغداء اثنان، وعلى العشاء اثنان. فإذا زادت كأس في وجبة، تقِلّ في أخرى. حتى إذا تعكّر مزاجي. لا يهم. المهم هو الاستمرار في النظام. هذا ما يَحميني مِن الانهيار. استيقظتُ مبكرًا في هذا اليوم. فتحتُ المذياعَ على إذاعة الأغاني. كانت أغنية قديمة لعبد الوهاب.. "امتى الزمان يسمح يا جميل". بينما كنتُ أحلق ذقني، نظرتُ إلى وجهي في المِرآة، ولم أتعرّف إلى نفسي، أو هكذا أحسستُ. ضربتُ على حياتي طوقًا صارمًا مِن العزلة الكامِلة عن العالمَ كلّه، ربما هي مَنْ جعلَتْ مِني إنسانًا آخرَ. على أية حال، عِشتُ عزلتي بمحضِ اختياري، مستمتِعًا بمفرداتها البسيطة التي لم أكن أريدُ سواها: سَبَتْ التموين، وبقالة عم شحاتة، والنبيذ، وأغاني وردة.

خرجتُ مِن الحمّام وتوجهت إلى غرفة نومي. ياه..كم اشتقتُ

إليها. فتحتُ دولاب الملابس وأخرجت مِن الدولاب بذلة كُحلي قديمة. ارتديتها آخر مرةٍ في عزاء "رجاء". كانت مغمورةً في تراب الماضي البعيد. علاقتي بالمكوجي مقطوعة منذ سَنَة تقريبًا. حتى لو أرسلتُها اليومَ للتنظيف لن تأتي قبل يومين. مررتُ بيدي. نظّفتُ ياقةَ البذلة وأطرافَ الأكمام بخرقة قماشٍ بيضاءَ نظيفة، كانت في الأصل قطعة ملابس داخلية مهترئة تخصّني، وفتحتُ بابَ الشقةِ للخروج. حينَ فتحتُ الباب، لفحَ وجهي تيارُ هواءٍ بارد، فأغلقتُ البابَ بسرعة، ورجعتُ إلى غرفة النوم، وأخرجتُ الكوفية التريكو الحمراء. كانت لـرجاء. ظلّت رجاء محتفِظةً بالكوفية الثقيلة لمدةَ ثلاثين سَنَة، تستعمِلها بحرص، تطويها برفقٍ بعدَ العودةِ إلى المنزل وتَضعها بعنايةٍ داخل دولابِ الملابس. لمْ أفهمْ يومًا سِرَّ هذا التعلّق. كانتْ تقول إنها أغلى هديةٍ أهديتْ إليها مِن أغلى صديقة في عمرها. الغريبُ أنّ الكوفية التريكو صانت العِشرة هي الأخرى وحافَظتْ على رونقها. فلمْ أرَ وَبرًا قَط فوقَها، ولا لاحظتُ تغيّرَ لونِها طوال هذه السنوات الطويلة. طوّقتُ عنقي بالكوفيّة الحمراء وخرجتُ إلى الشارع. لم يكن مترو الأنفاق مزدحمًا حين ركبته بالقرب مِن سينما الزيتون القديمة. أخذتُ أفكرُ في طلب مدير الشركة لقائي. ماذا يريد مِن أرملٍ ومدرّس تاريخٍ على المعاش عمرُه فوقَ الستين عامًا؟ مِن المؤكد أنّ الأمر فيه شيء

غامِض. شركات التأمين شديدة الحذر في التأمين على العجائز أمثالي. أخبرَني بذلك أمجد، ابن سلامة أخي حين أتى لعزائي في وفاة رجاء. يَعمل مندوبَ مبيعات في شركة تأمين على الحياة. يبيع بوليصة واحدة بالكاد كل ثلاثة أشهر، ويَقتاتُ مِن العمولة للثلاثة شهور التالية. الناسُ في مصر لا يؤمنون بفكرة التأمين يا عمّي.

- صباح الخير يا فندم .. وصلَني هذا الخطاب مِنكم، مِن الأستاذ عادل خيري شخصيًّا، هو مَن يريد مقابلتي.

كانت زوزو هي مَنْ استقبلتني حين وصلتُ الشركة. وحين صعدتُ إلى الطابق الأخير حيث مكتب المدير العام. كانت زوزو جالسةً أيضًا على مكتب فوقَه لافتة صغيرة مكتوب عليها: سكرتيرة المدير العام.

- هو حضرتِك أخت الأستاذة زوزو؟ أصلها هيه اللي قابلتني تحت، وهيه اللي جَت البيت من يومين علشان تعرِض عليا أعمل بوليصة عندكم وكده يعني...

- ..آه .. طبعًا.. إحنا اتناشر بنت.. إخوات... وكلنا شغالين في نفس الشركة

- لكن الشبَه غير عادي.. الملامح والصوت -أنا آسف يعني-

والجِسم..لكن أعماركم متفاوتة... أكيد اللي جَت من يومين البيت هي أختكم الكبيرة.

- آه..طبعًا..اتفضل استريح.. هابلّغ مسيو عادل..

حين دخلتُ المكتب، وجدتُ "زوزو" أخرى تقف إلى جانب شابٍ في أوائل الثلاثينيات تقريبًا، تَعرِضُ عليه أوراقًا. ابتسَمَتْ في وجهي ابتسامةً غامضة. دعَاني الشاب بحركةٍ مهذّبةٍ مِن كف يدِه وابتسامةٍ رقيقة، للجلوسَ في الصالون المُلحَق بغرفة مكتبِه. جَلَسْتُ فوق فوتيه أزرق ضخم كاد يبتلِعُ جسدي.

وضعَ فوقَ أنفه المدبب نظّارةً طبية ذاتَ إطارٍ ذهبي رفيع، ووقّعَ بعض الأوراقِ بقلمٍ له أسود ثخينٍ فاخرٍ، بعدَها لمَلَمَتْ زوزو جميعَ الأوراق التي فوق مكتبِه حتى فرغ سطح المكتب تمامًا مِن أي ورقة. كان مسيو عادِل - كما سمعتُ الجميعُ هنا ينادونه- طويلَ القامةِ أسمرَ، وسيمًا. غيرَ أنّني حين دقّقتُ النظرَ إليه، أنني فَزِعتُ مِن هيئتِه؛ كان صورةً مُصغّرةً مني وأنا في الثلاثينيات حينَ تزوّجتُ رجاء. الشبَه متطابِقٌ إلى حدٍ عجيب. كان يرتدي بذلةً كُحلية فوقَ قميصٍ أبيضَ يضوي مِن شدة لمعانِه، وقد أحاط عنقَه بسكارف حريري كاروهات أحمر. كان للرجُلِ "اللازمة" نفسها التي لي، كان يهرشُ حاجبَه الأيمن

على الدوام بسبابة يده اليُمنى كلّ بضع دقائق بعدَ أنْ يرفعَ نظّارَته. حاولتُ صرْفَ تفكيري عن هذه الأفكار المُضحِكة التي ربما جاءتني مِن عزلتي الطويلة في الشقة في السنة الأخيرةِ بعدَ وفاة رجاء، وفكّرتُ أنّه ربما بسبب جلوسي الطويل وحدي واعتيادي التحديقَ إلى المرآة، توهَّمْتُ أنّ الناس كلهم شبَهي. همستُ في نفسي: "يخلَق مِن الشبه أربعين". وضعت السكرتيرة الملفاتِ داخل دوسيه بلاستيك ضخم وانصرفت. اقتربَ مسيو عادل مِن مقعدي، وحيّاني مِن جديد بابتسامةٍ ودودةٍ صادِقة. قبلَ أنْ يتحدّثَ، هرشَ حاجِبَه الأيمن، فلمحتُ خاتمًا مِن الذهب يزيّن بِنصر كفّه الأيمن. لفحتني رائحةُ العِطر النفّاذة حينَ تَقدّم في جِلستِه مِني وقال بصوتٍ هاديء:

– أهلًا بيك يا فندم ..أنا المهندس عادل خيري ..الـCEO بتاع الشركة.. أو مجموعة شركاتWAKKAL، أولًا أشكر حضرتك على الحضور ..وتعَبناك... شركة التأمينات على الحياة هي أحد فروع مجموعة WAKKAL Group، شركة التأمينات على الحياة اسمها Past is now ..المجموعة في الأساس شركة متعددة الجنسيات، معنا شركاء أمريكين وخليجين ولبنانيين، نعملُ في مجال الاستثمار المباشر، شراء شركات وإعادة هيكلتها، وبيعها مِن جديد ونحقق أرباح ..بيزنيس ..نعمل في كلّ شيء، بدأنا مؤخرًا في تصميم برامج سوفت وير

للمؤسسات الحكومية وبتقوم بعمل دورات تدريبية لموظفي الحكومة على البرامج... لنا علاقات واسعة مع جميع الهيئات الحكومية في مصر.. نفّذت شُغل كتير للوزارة في تحديث قواعد البيانات والسوفت وير، أنا أنشأت مِن سَنة تقريبًا شركة للتأمين على الحياة.. على فكرة المجموعة بدأها والدي منذ خمسين سَنة، لكن النشاط كان في تصنيع القوارب البخارية واللانشات البحرية في نيو جيرسي بأمريكا، لكن مجال العمل تَطورّ وتوسّع إلى كافة المجالات، أنا ولِدتُ في أمريكا، لكن والدتي مصريّة الأصل، ووالدي أيضًا...هل أدخل في الموضوع مباشرةً؟.

- مِن الأفضل طبعًا يا ابني..لكن لو سمحت تخفّف مِن النطق بالإنجليزية لأنّ سمْعي ضعيف.

- آه.. اوكي.

- لكن..حضرتك أخذت بياناتي منين يا عادل بيه؟ مِن المعاشات ولا من مَدرسة القبة الثانوية؟.

- لأ طبعًا.. ممنوع.. شخص معرِفة بيحِب حضرتك جدًّا هو الذي أوصى بدراسة حالتَك.. وأعطانا العِنوان؟.

- انتوا مين؟.

- إدارة البحوث والتسويق يا أستاذ ماضي..

- آه..ومين الشخص ده..اللي بيحبني جدًّا؟.

- مش فاكر.. ممكن أجيب اسمه مِن السكرتارية.

- آه والله ..الموضوع ده يهمني جدًّا ..اتفضل يا عادل بيه...

- أنا عندي فكرة.. حضرتك عندك ٦١ سنة.. تمام ..هانعمل لك بوليصة تأمين على الحياة بمبلغ مليون جنيه.. تُصرَف في حالة الوفاة بعد عُمرٍ طويل طبعًا..

- هو حضرتك تعرف سلامة أخويا؟.

- أفندم؟

- سلامة.. سلامة أخويا الوحيد، والوريث الشرعي في حالة وفاتي.. أنا أرمل.. والمرحومة رجاء ماتت وتركتني... ماعنديش ذُرّية ولا إخوات تاني..

- درسنا حالتك يا أستاذ ماضي.. الموضوع صعب قليلًا.. سوف أشرح لك كل شيء بالتفصيل.. تشرب إيه؟.

- يا زوزو...قهوة زيادة بسرعة للأستاذ ماضي.

- زوزو!!.

..سأشرحُ لك بالتفصيل..

"..لديّ فكرة جديدة يا أستاذ ماضي..التأمين على الأرامل والمترمّلات.. مازالت المفاوضات قائمة مع هيئة الرقابة على التأمين لتوفيق الأوضاع والشروط القانونية، لكن الموضوع يسير كما نريد. نريد أن تكون حضرتك أول شخص يعمل معانا بوليصة تأمين على الحياة.

كان الشاب يتحدّث بجديّة شديدة، فسألته بدهشة:

– عفوًا يعني .. وماذا سأستفيدُ أنا؟ ..المستفيد الوحيد هو أخي سلامة وزوجته وأولاده.. يعني أدفع الأقساط وهوّه ياكُل؟

– لا لا الموضوع ليس كما تتصور... لن تدفع أقساطًا.. العملية حدوتة قصيرة وإعلان في التليفزيون وعلى قنوات الراديو الـFM، مضمونها كالتالي: أمِّن على والِدكَ الذي يعيش وحدَه..أمّن على والدتك التي تعيش وحدَها.. البوليصة تكفل معاش شهري للمؤمّن عليه.. وهو سيادتك.. قيمته عشرة آلاف جنيه، وتأمين طبي كامل بما في ذلك الدواء للمؤمّن عليهم، قِسط على ٣٠ سنة..

– ٣٠ سنة؟ ومَن سيدفع الأقساط؟ معاشي ١٦٠٠ جنيه يا فندم.. وزي ما شرحت لمعاليك.. ليس عندي أولاد.

– إذا وافقتَ على الفكرة.. سنسوّق الموضوع وستظهر في إعلانات على الإذاعة.. لن تدفع قرشًا واحدًا..

- ولماذا أنا؟ وكيف عثرتم عليّ؟.

- قلتُ لسيادتك ..ده شغل الـmarket research .

- أفندم؟.

- قسم بحوث التسويق.

- ممكن أفهم أكثر الفِكرة؟.

- شوف يا أستاذ ماضي .. معظم الشباب في مصر النهاردة زي ما درسنا السوق.. يعملون لساعات طويلة هذه الأيام.. الولاد والبنات.. لا يوجد وقت للسؤال عن الأهل سوى مكالمة سريعة بالموبايل كل يوم أو يومين.. وزيارة يوم الجمعة أو السَبْت.. وكلام مكرر.. وكل واحد مشغول في مداعبة سطح تليفونه.. البوليصة هدية عيد الأم وعيد الأب كمان... معظم الناس عايزة تقدم شيء لأهاليها على سبيل التكريم، شيء تسكّت بيه ضميرها والسلام.. بس مش عارفه تعمل إيه..أنا فكرت في بوليصة تأمين على الأرامل والمترملات.. تأمين عليهم.. سعر العلاج أغلى شوية.. والمخاطرة أعلى شوية.. إيه المشكلة؟.. مدة البوليصة ٢٠ سنة تستمر بعد وفاة المؤمّن عليه ولا يمكن إلغاءها إلا بعد عشر سنوات... يعني يكون ربنا افتكر عبيده والأعمار بيد الله طبعًا.. لكن أنا ضامن cash flow شهري مِن مرتّب ابن أو بنت المؤمّن عليه...

– عظيم جدًّا ..لكن ما دوري تحديدًا؟ هامثِّل يعني؟.

– حاجة زي كدا.. وكله بحسابه طبعًا... دي بيزنس...

– آه .. طبعًا.. طيب ولو الناس اكتشفوا أنني بكذب عليهم.. أنا بالفعل أعيش في عزلة مثل الأموات.. لكن أنا كنت مُدّرس بالتربية والتعليم...

– يعني إيه وزارة التربية والتعليم؟؟ درَسنا حالتك يا أستاذ ماضي جيِّدًا.. صدقني.. أنت شجرة صبّار وحيدة في الصحراء الكبرى... لن يسأل عليك أحد.. إذا كان الأحياء لا يسألون عن بعضهم، هل تتصور أن يتصل بك زميل قديم ليسأل عنك وعن.. عن مَن؟ زوجتك ..الله يرحمها.... العُمر بَركة من ربنا.. عِيش يومين يا أستاذ ماضي.. سافِر بيروت.. انت مش عايز تحجّ ولا إيه..؟ الموضوع بقِي سهل اليومين دول.. مش زي زمان..

– يعني أشكر ذوقك يا عادل بيه.. لكن.. محتاج وقت للتفكير..

– خُذ وقتك في التفكير..

قَطع الحوارَ دخول "زوزو"، أو ربما أخت مِن أخواتها الاثنتي عشرة، ترتدي جيبة سوداء قصيرة. وضعتْ القهوة فوقَ الطاولة الصغيرة المقابِلة للفوتيه الذي أجلس عليه، والفنجان الآخر فوقَ

الطاولة الأبانوس الصغيرة المقابِلة لكرسي "عادل". طالت فترة الصمتِ، ففهِم مسيو عادل كما أطلقتْ عليه زوزو أنني لا أريدُ إعطاء إجابةٍ حول ما دار بيننا، أمرَ بسيارة توصِلني لمنزلي، فلم أرفض.

طلبَ مسيو عادل مِن "زوزو" فيهّن توصيلي إلى باب المِصعَد. سِرت وراءها وعقلي مشغول فيما قاله الرجُل. فكّرتُ في حالتي المادية الحالية وأنّه لا ضيرَ مِن "لعبةٍ" سريعة لقتل الوقتِ الذي كان يمرّ عليّ بطيئًا جدًّا، كل يوم. في الوقتِ ذاته، جالَ بخاطِري "السبَت"، الذي أُدلِيه كلَ يومِ خميس. سأفتقِده كثيرًا إذا وافقتُ على العرضِ السخيّ مِن مسيو عادل. فتحتْ "زوزو" بابَ المصعد وودَّعتني بابتسامةٍ هادئة. كان مكتب مسيو عادل في الدور العاشِر. استغرق الأمر دقيقةً كامِلة للوصول للطابق الأرضي. كان الرجُل ودودًا إلى أقصى درجة، وأمرَ بغداءٍ فاخرٍ طلبَه مِن مطعم مشويات شهير بالمهندسين، ثمّ طلبَ حلويات وعصائر مِن لابوار، وبعدَها شاي وقهوة مِن ماكينة القهوة الفاخرة الموجودة أقصى يمين غُرفتِه. عَزَمَ عليّ بسجائر طويلة بنيّة اللون، وتركَ لي العلبة كلها. أثناءَ خروجي مِن البوابة الزجاجية الكبيرة لمبنى شركتِه، فكّرتُ أن سبب هذا الوُدّ الغامض مرجِعه حاجته الماسّة إلى مَنْ يقومُ بهذا الدور. الموضوع مصلحة لا أكثر. مِن المؤكّد أنّه جمعَ عني معلوماتٍ كثيرة. وإلا كيفَ عرَفَ أني أشربُ النبيذ والقهوة

بعدَ الغداء؟ لكن هذه أشياء لا يعرِفها أحدٌ سواي. نسيتُ أن أسأله مَن الذي أعطاه كلّ هذه المعلومات عنيّ. هل أعودُ؟ بعدَ خروجي مِن مبني الشركة، فوجئتُ بشابٍ صغير يرتدي تشيرت أزرق مرسوم عليه علامة **Superman**، وطاقية رأس رياضية حمراء، يَفتحُ لي باب سيارة سوداء فارهة. لمْ أرَ في حياتي سيارةً بمثلِ هذه الفخامة والشياكة. فكّرتُ في نفسي: ".. وأنتَ كنت شفت عربيات فخمة تاني فين يا ماضي باشا؟".

قال السائق الشاب بصوتٍ مهذّب:

– "..أوامِر مسيو عادل يا فندم.. أوصّل حضرتك لباب البيت".

– أنت عارف مكان بيتي؟.

– لا طبعًا.. حضرتك هاتوصفلي.. تحت أمرك يا فندم..

كُنّا في أواخِرِ ديسمبر، وكان الجوّ بارِدًا. أمامَ بابِ السيارة الخلفِي المفتوح وقفتُ مترددًا. السائق الشاب يُمسكِ الباب بيده بصبرٍ وأدبٍ وهدوءٍ في انتظار قراري. نظرتُ إلى الساعة، كانت تقترب مِن الرابعة ظهرًا. شارع أحمد عرابي متروس بعدد لا نهائي مِن السيارات وعربات الميكروباص. وصولي إلى المنزل قدْ يستغرِق زمنًا آخر. لم أجدْ حلًا آخر سوى الركوب معه.

انطلقت السيارة بعد أنْ أغلَق السائق النوافِذ وفتحَ التكييف الساخِن، ثمّ فتحَ الراديو على موسيقى إذاعة البرنامج الموسيقي. ضحكتُ في سِرّي: "هذه أيضًا يعرِفونها.. أحِب سماع إذاعة البرنامج الموسيقي الساعة الرابعة". لم يكن استسلامي للأمر مرَدّه إلى رغبةٍ في مالٍ أو عيشة رغدَة، لا، أنا عمري فوقَ الستين، مضَتْ الأيام الحلوة والذكريات مع "رجاء"، راحَت عليّ كلّ الفُرَص. ولم يعد للهوى أي احتمال. أخي يسرِقني عيني عينك وأنا صامِت، و"رجاء" تركَتني في فترةٍ أنا أحوجُ ما أكون إليها فيها، وأنا صامِت.

طالما أنّ حبلَ "السَبَت" موصول، وعم "شحاتة" على قيدِ الحياة وقادِرٌ على جلبِ النبيذ المعتّق بالسعر المتّفق عليه، فالحياة ماشية، حتى ولو لم تصل بي إلى مكان. كان الاستسلامُ بمثابةِ إعلانِ هزيمة، رفْع الراية البيضاء في مواجهة الحياة، شيءٌ مِن باب "ماذا يضير الشاةَ سلخُهَا بعد ذبحِها؟"، أو"هيسخطوك يا قِرد.. هايعمِلوك إيه؟".

سارَ السائق فوقَ كوبري أكتوبر، كان مُزدحِمًا بطريقة غير عادية، تأففتُ لَحَني السائق الشاب مِن المِرآة الصغيرة المثبّتة أمامَه، فقالَ: ..ده العادي بتاع أكتوبر يا فندم أنا هاخد الطريق مِن وسط البلد للعباسية، وبعد كده كوبري القبة إلى حي الزيتون ...تحت أمرك يا فندم".

- زي بعضه يا ابني.

مضى السائق مِن ميدان عبد المنعم رياض، ليشقَ طريقه بصعوبةٍ نحو شارع رمسيس. وصَلنا منطقة غَمرة بعد حوالي رُبع ساعة. كان الطريق أفضلَ نسبيًا مِن كوبري أكتوبر الذي بدا لي مِن الأعلى مثلَ طريقٍ أبدي والسيارات لا تتحرك كأنها مُثبّتةٌ بالجبس. توقّفتْ السيارة فجأة أمام محل بيع عصائر ومرطّبات بجوار المستشفي القِبطي. سألتُ السائق: خيرًا.

قال السائق:

- لو تسمح يا فندم.. أنزل أشتري علبة سجائر؟.. لو مافيهاش إساءة أدب يعني.. مش هاشربها في العربية.

- لا يا ابني.. لا إساءة أدب ولا حاجة... اتفضل يا حبيبي..

- تحب أجيب لحضرتك حاجة مِن الكشك؟.

- ممنون يا حبيبي.. تُشكَر..

لم يغِب السائق سوى دقيقةٍ واحدة، لمحته يهرول بسرعة نحو السيارة وهو يبتسِم ويشيرُ بيدِه إلى صدره ورأسه، فيما يحمِل معنى الأسف والعِرفان. انطلقَ بنا مِن جديد، وكانت الشوارع مزدحمة. أثناءَ

سيرِنا، وفي شارع غمرة الرئيس لمحتُ محلًا لبيعِ التُّحَفِ والأنتيكات. تذكَّرتُ "إيزيس".."إيزيس مُسعد".

تُرى ماذا فعلَ الزمن بها؟ أمَا تزالُ تقطنُ حي "الضاهر" وحيدةً، تُداري الأيامَ والأيامُ تُداريها؟ كانت أصغرَ مِني بعامين، عُمرها الآن تسعة وخمسون سَنَة، وعيد ميلادها كان في الشتاء، أواخر ديسمبر.. أيّ يومٍ؟ ٢٢ ديسمبر..٢٣ ديسمبر..٢٤ ديسمبر؟ لا أذكرُ.

– هوّه النهاردة كام في الشهر يا ابني وحياتك؟.

– ٢٥ ديسمبر يا فندم..

– عِرفت بالسرعة دي؟.

– ساعة التابلوه يا فندم مكتوب فيها كل حاجة.. التاريخ واليوم والساعة ودرجة الحرارة...

– كده.. تُشكر يا بني..

– تحت أمرَك يا فندم.

تردّدتُ قبلَ إخبارِه برغبتي في النزول عند أول شارع لطفي السيد، ولكني فعلتُ. توقّف بهدوء وقال أنّه مُكلّف بتوصيلي حتى باب البيت، وإنه يستطيع انتظاري لحينِ الانتهاءِ مِن المشوار الذي أنوي القيامَ به.

كانت الساعة تقترب مِن الخامسة، وخيوط المساء بدأتْ تَغزل شِباكَها فوقَ البيوتِ والشوارع. أخرجتُ نظارتي الطبية مِن الجِراب الجِلدي، نظّفتُها وقررت الخروجَ للشارع.

- أنتظِر حضرتك يا فندم؟.

- جايز أتأخّر...

- براحتك يا فندم.. أنا تحت أمرك الليل بطولِه..

فكّرتُ لثوانٍ قليلة، لو كانت "إيزيس" على قيدِ الحياة، يا رب، ستكون قعدة طويلة، ولو كانت- الله يحوش- ماتت فسأعِرفُ ذلكَ في غضونِ دقائق. الطقسُ بارد. تحسّستُ ركبتَي، ففطنتُ إلى أنني لن أقوَى على ركوب مواصلتين كي أصلَ للزيتون. كما أن أجرة التاكسي إلى الزيتون قدتُكلّفني الاستغناءَ عن زجاجة النبيذ لمدة أسبوع كامل.

- لو سمحت انتظِرني.... قد أتأخر..وقد آتِي في غضون دقائق...

- ده تليفوني يا فندم (سَحبَ ورقةً مِن التابلوه ودوّنَ فوقَها رقم تليفونه المحمول).... هاكون قريب مِن حضرتك على أي قهوة هنا في الضاهر..

- أشكرك يا ابني.. كتّر خِيرك..

- تحت أمرَك يا فندم...

هبطتُ مِن السيارة وفي رأسي آلافٌ مِن الأفكار والذكريات القديمة جدًّا، والمتضارِبة جدًّا. لمحتُ كُشك سجائرٍ بالقُرب مني. أمامَ الكُشك مجموعةٌ مِن الشباب يدخنون ويلعبون الورق، سألتهم:

- فين شارع "عوني" يا ولاد؟.

- سيب أول يمين.. التاني على طول.. شارع على ناصيته مكتبة اسمها "الراعي الصالح"

- تعيش يا حبيبي..

- تؤمرني حضرتك..

استرجعتُ كلام المرحومة رجاء، كانت تقول لي أسماء شوارع الضاهر أغلبها مكوّنة مِن اسم واحد، مثلا شارع حمدي، أو شارع زكي، أو شارع جعفر، أو شارع ذهني، وحتى الميادين مثل ميدان فخري، وحتى الشوارع الكبيرة الرئيسة مثلَ شارع الضاهر، وشارع الجيش، ونادرًا أن يكون هناك شارعٌ مِن اسميْن مثلَ شارع أحمد سعيد، أو شارع قنطرة غمرة. لاحظتُ صيدليةً تحمِل اسم "رجاء ونادر"، ابتسمتُ وأنا أذكرُ كلامَ المرحومة رجاء:

.. تقريبًا كل أهل الضاهر القدامى يعرِفون بعضهم البعض، ومِن الصعب جدًّا أنْ تعثرَ على اثنين مِن جيل واحد لا يعرِف أحدهما الآخر ولو حتى بالشبَه، تعرف يا ماضي، أهالي الضاهر يعتبِرون شوارع الحي وطنًا، بمعنى إنه مِن الوارد جدًّا أن تجِد أحدًا يقول للآخر "إنتَ من الضاهر؟" والثاني يرد يقول له نعم، فيتحول السؤال السريع إلى صداقة وطيدة، وفي غضون ثوانٍ يصبحان أخوين، بل أكثر، وتتوطد بينهم أواصرُ مودةٍ عميقة بسرعة البرق... أهلُ الضاهر لديهم سوق شارع حمدي، وهو سوق خضار وفاكهة، أجمل وأغلى من سوق التوفيقية، وأهالي الضاهر يفتخِرون بالسوقِ افتخارًا عجيبًا، ولفترةٍ طويلة كانوا يعتبرون هذا السوق سرّهم المقدس، الذي لا يصِحّ مِن أيّ شخصٍ مِن خارج الحي الاطلاع عليه. أتمني لو رزقنا ربنا بأطفال أن يلتحِقوا بأي مدرسة هنا، حتى ولو بعُدتْ المسافة عن شقتنا هنا في الزيتون، أي مَدرسة هنا ستكون فرصة العمل.. سواء مدارس راهبات أو الرهبان، المارونية والكولاج دي لاسال، والبطريكية والسيكريكير، وسان فان سان دي بول... لا تَخَف يا ماضي، هذه المدارس ليس لها علاقةٌ بالحالة المادية، هذه المدارس ليستْ غالية.. وحتى لو كانت سوف أبيعُ كلّ ما أملك مِن ذهبِ أمي...لكنَ الشارع الوحيد الذي كان مكونًا مِن اسمين، كان الشارع الذي تسكنُ فيه "إيزيس" شارع عطا الله.

دائمًا ما كنتُ أؤمِن أن القدرَ راضٍ عني، رغم أنني لا أصلِّي. كنتُ أؤمِنُ أنّ القدرَ كافَأني على شيءٍ لا أعرِفه، بأن وضَع في طريقي امرأتيْن: رجاء، وإيزيس. ومنذ أنْ أخذَ القدَر مِني "رجاء"، لمْ يبقَ لي سوى "إيزيس". مشيتُ بضع خطواتٍ حتى لمحتُ مقهى بلدي. الكراسي مرصوصةٌ بعنايةٍ وإتقانٍ فوقَ الرصيف وأسفلَه. اقتربَ مني رجلٌ غريب وهو يبتسِمُ، كان أصلعَ الشَّعر، اللهم إلا طاقية بيضاء مِن الشعر تطوِّقُ محيطَ أسفل الرأسِ، يرتدي جاكت مِن الجلد الأسود له رائحةٌ نفاذةٌ. قال وكأنه يعرِفني:

- أهلًا يا كابتن...كيف الأحوال؟ أين أنت؟.

- كابتن؟ حضرتك تعرفني؟.

- حبيبي يا أبو ماضي.. لم تتغير يا كابتن ...أنا سمير عبد الله.. نسيت أيام لعب الكورة في الشارع.. أنا "شوبَك"...استغرقَ الأمر بضعَ ثوانٍ حتى أتذكّر سمير وأيام لعب الكرة.

شووووط..يا واد يا واد..يا موده..شووووط جامد..يا واد يا لعّيب..

كنتُ أحدّق في ظلامِ الشارعِ وهو يحدِّثني عن فرقة "العفاريت الزُرق" ولعب كرة القدم في شارِع زكي الواسع، وكيف أنّه كان يجمع علي أبو جريشة وسيد عبد الرازق ومحسن جلال لمباراة كرة قَدم

أسبوعيًا في شارع زكي، والجائزة خمسة جنيهات. أحسستُ أنّ كلامَ سمير بمثابة رائحة نشادِر قوية اخترَقتْ شعيرات أنفي. سألَني عن أحوالي وعن حياتي، فأجبتُه باقتضابٍ وأخبرته أنني في زيارةٍ لصديقٍ مريضٍ هنا، فربَّتَ على كتفي. اختفى سمير عبد الله بعد أن قبّلَني وكأنه كان يؤدي مهمّة كُلِّفَ بِها.

طالما كان هذا الطريق طويلًا، لا أعرفُ لماذا صار الطريق قصيرًا الآن، طويتُه في دقائقَ بالرغم مِن خطواتي البطيئة الهَرِمَة. على ناصية الشارع الذي يقعُ المنزل على أوّلِه توقّفتُ، وأحسستُ أنني أقِفُ وسطَ متاهةٍ متشعبة المسالك، وأنّ كلّ طريقٍ سيقودُني حتمًا إلى طريقٍ آخرَ. فكّرتُ للحظاتٍ في التراجع عما أنا مُقبِلٌ عليه. عُمري واحد وسِتون عامًا، ولا عقلي ولا أعصابي يتحمّلان أي ألمٍ أو صدمةٍ جديدة.

ولماذا صدمة يا ماضي؟ ما الذي يجعلُكَ تفكّر في الآلامِ والصَدَمات؟ ماذا فعلتَ في الزمنِ الآخر؟

كنتُ أشعرُ بالمرارةِ للذكريات التي أملكُها، وللمنزل الذي لا أملكه، الأولى لقربِها مِني، والثاني لبعدِه عني. غَمَرَني إحساسٌ أنّ كليهما، أي المنزل وذكرياتي، كانا بمثابة المعشوقة الهاربة التي تتجنّبني، ولكنها لم تتوقّفْ يومًا عن ملاطِفتي بوعودٍ طالما حَلُمتُ بِها.

(الفصل الثالث)

أنـده عليك بالحب تجيني
واشتاق إليك تحلو سنيني
وأخاف عليك أكتر من عيني
وأنـا وإنـت اتنين عايشين
في هـوانـا أحـلـى سنين
وفـكـل مـكـان يـشـوفـونـا
يـلاقـونـا إحـنـا الاتـنـين

كلمات: محمد حمزة

وصلتُ شارع "عوني" منزل رقم "١٥١".

شقتها في الطابق الأخير مِن العمارة القديمة المكوّنة مِن ثلاثة طوابق، عِمارةٌ قديمة شُيِّدَتْ في منتصف القرنِ الماضي، كانت شقتها في الطابق الثالثِ والأخير، أمامَ الجنّة مباشرة.

لمْ تكن شقةً بالمعنَى الحَرفي. وإنما حُجرةٌ صغيرةٌ فوقَ سطحِ العمارة، أُدمِجتْ إدماجًا داخل مجموعةٍ مِن القوائم الخرسانية والأسياخِ المعدنية التي شيّدها صاحِبُ العمارة لبناء طابقٍ إضافي، يزوّجُ فيه أبناءَه. إلا أنّ القدرَ لم يُمهِله، وتوفِّي وهو يَصُبّ الخرسانة. ثم هاجرَ أبناؤه واحِدًا تلوَ

الآخر إلى أمريكا ودُبَي بعد وفاته ووفاة أمّهما في حادثِ انقلاب السيارة أثناء عودتها مِن دير وادي النطرون. حاولتُ تذكّرَ سنوات الزمن الآخر. العمارة التي أسفلها مقهى "هذه ليلتي" قدْ هدِمَتْ وقامتْ مكانَها ناطحةُ سحاب، واستُبدِلَ المقهى بهايبر ماركت أولاد لمعي. كان باب العِمارة مفتوحًا، وهو بابٌ حديدي صغير مشغول بنقوشٍ قديمة، مُغبّرٌ بترابٍ قديم، وعُشّ عنكبوتٍ هائل يخيم أعلى حلقِ الباب، ذَكَر عنكبوت بُنيّ ضخم لا يتحرك. وربما أنثى عنكبوت نامتْ نومةً أبديةً بعدَ أنْ نَسِيها الزمن. حينَ دلفتُ مِن بابِ العمارة، لاحظتُ "سَبَت خوص" مُدَلّى بحبلٍ رمادِي. تخيّلتُ للحظةٍ أنه سَبَت الخوصِ نفسُه الذي في شرفة شقتي. اقتربتُ قليلًا لأتأمّلَ ملامحَ "السَبَت". كان مُمزّقَ الحوافِ.

غريبة.. سَبَتَ الخوصِ عندي ممزقُ الحوافِ أيضًا!"

تحسّستُ الحبلَ، كان خشِنًا، أشعثَ وغيرَ مجدولٍ، ربما مِن كثرة الاستعمال، وبدا لونُه رماديًا مغبّشًا مِثلَ عجوزٍ اختلطَ في شعرِها السوادُ بالبياضِ. لمْ أشأْ تركَ نفسي لهذه التوهمات التي ربما ترجعُ إلى حالةِ النوستالجيا المراهقة التي ورّطتُ نفسي فيها. ارتقيتُ درجات السلّم بهدوء. يبدو أنهم بدّلوا درجاتِ السلّم الحجرية العتيقة، بدرجاتٍ أخرى أقلّ سُمكًا وأكثرَ راحة. خمّنتُ أنّ القائمين على شؤون العِمارة

مِن العجائز، أو مِن أصحابِ المعاشات مثلي، الذين قسَتْ عليهم الحياة فلَم يعودوا يتحمّلون ارتقاء درجات السلم العالية القديمة، المعاكسة للجاذبية الأرضية. وكأنّ الزمنَ الخؤون مَثل إلَهٍ مِن آلهة الأوليمب القديمة، أنا مدرّس تاريخ سابق.. أعرفُ الزمن جيِّدًا، لا يُشاد الزمنَ أحدٌ إلا غلَبَه.

الطابق الأول..

كان كلُّ طابقٍ مكونًا مِن شقتين متقابلتيْن، يفصل بينهما إصبصٌ ضخم من الفخار البُني يحوي أزهار ياسمين. تذكّرتُ "إيزيس" حينَ كنتُ أزورُ خالي صبري، وهي تروي زهورَ الياسمين في فستانها الأزرق القصير، الذي يكشِفُ عن ساقيْن جميلتيْن عذراوَيْن. أمَا تزالانِ كذلك؟ أضأتُ مصباحَ السُلّمِ، فوجدتُ البَسْطَةَ الرخامية القديمة ما تزال في مكانها، بارزةً بعَرْضِ شِبرَيْن، تتوسط الجِدارَ الفاصِلَ بين الشقتيْن المُتقابِلتيْن، أسفلَ شُبّاك المنوَرِ تمامًا، وكان الأستاذ فهيم، صاحِب العمارة، قدْ صَنعها للضيوفِ وكبارِ السن الذي كانوا يقدِمون في الأعياد وشَمّ النسيم مِن المنيا لزيارة أقارِبهم في العِمارة. جلستُ أستريحُ قليلًا مِن عناءِ السُلّمِ.

رأيتُ إيزيس قَبل ثلاثين سَنَةٍ تقريبًا. عرَفتها قَبل زواجي مِن رجاء

بخمسِ سنوات. كانت يتيمةَ الأُم. توفيت والِدتها حين كان عُمرها عشرَ سنواتٍ بسببِ ورمٍ خبيث. وكان والِدها يعمل في وظيفةٍ إداريةٍ متواضعةٍ في مَدرسةِ الجلاء الإعدادية بنات. كافحَ مِن أجلِ تعليمها، صَبرَ وتَحَمَّلَ. وقفَ إلى جانِبها، وكانَ مؤمِنًا بها، بل كان على يقينٍ أنّ اللهَ سيعوِّضه خيرًا. كبرَتْ إيزيس، والتحقت بكلية الآداب، جامعة عين شمس، قِسم وثائق ومكتبات، ثمّ توسّط أبوها بعدَ تخرّجها لتعملَ في وظيفةِ مساعِدة أمينة مَكتبة بالمَدرسة ذاتِها التي كان يعمل بها. كنتُ وقتَها حديثَ التخرُّج في قِسم التاريخ بكلية الآداب، جامعة عين شمس. وكنتُ في انتظارِ خِطاب مديرية القوَى العامِلة للحصول على وظيفةٍ حكوميةٍ مثل أبي وأمي، أي مصلحة.. هيئة قصور الثقافة أو أمين مكتبةٍ بإحدى الجامِعتيْن، القاهرة أو عين شمس. لكن القوَى العامِلة شاءتْ أن تُرسِلَني إلى مديرية التربية والتعليم، إدارة الوايلي التعليمية. في هذا الوقتِ، كنتُ أصطحِب سارة ابنةَ أخي "سلامة"، لتوصيلها إلى المَدرسة، أذهبُ صباحَ كلّ يوم. وكانت إيزيسُ تعملُ أمينةَ مكتبة في "مَدرسة الجلاء الإعدادية بنات".

لفتَ نظري جديتُها الشديدة في التعاملِ مع تلميذات المَدرسة، إلا أنها كانت جديةً لا تخلو مِن رحمةٍ وشفقةٍ على البنات. وكأنها كانت تحمِل جينات الأم الخائفة على بناتِها وهي ما تزال في الحادية والعشرين

مِن عُمرها. كثيرًا ما رأيتها تتحدث مع طفلةٍ واحدةٍ لمدة نصف ساعةٍ كاملة، تُحاوِل إقناعَها بشيءٍ ما. كانت تجثو على ركبتيها فوق بلاط الفِناء البارِد وتوجّه نظراتِها الثاقبة المُخترِقةَ نحو الطفلة، وكأنها تناشِدها، ثمّ تُعنّفها، ثمّ تُلاطِفها، وينتهي الأمر بسيلٍ مِن القُبُلاتِ الحانية فوق خدِّ كل تلميذةٍ.

سَمِعتُ أن أحدًا لم يَنجُ مِن تأثيرِ حديثها، وكأنها كانت تَصبُّ في آذانهم سحرًا، تَفتِنهم بكلامها ومنطِقها. حتى أشدّ الأطفال عنادًا وأكثرهم تَصَلبًا، كان يلين معها بمجردِ جلسةٍ واحدة. تطوّر الأمر لدرجةِ أنّ الكثير مِن المُترددات على المَدرسة كُنّ يناشِدن مديرة المَدرسة للتوسّط كي تتحدثَ مع أبنائهن وبناتِهن، لِمَا لها مِن قدرةٍ عجيبةٍ على الإقناع. قالت لي رجاء يومًا، إنّ أمّهات كثيرات تَحَدّثن إلى مدام إكرام، مديرة المَدرسة، بخصوص إقناعِ أولادهنَّ العاقين بالعودة إلى حظيرة المنزلِ مرةً أخرى، وإقناعِ رجالٍ آخرين بالعودةِ إلى حظيرة عشّ الزوجية. العجيب، والعهدة على المرحومة رجاء، أنّ الجميع كانَ يعودُ إلى الحظيرة، وكأنها كانت تملكُ مفاتيحَ سحرية لقلوب الناس. طالما تخيّلتُ إيزيس فتاةً بلا سِنٍ محددة، متوسطة القامة، خمرية البَشرة، لها شَعرٌ أسود طويل، لا هو بالناعم السائح ولا بالمُجَعدِ الخشِن. كان لها عينانِ واسِعتانِ لهما أثرٌ سماوي مُسكِرٌ، وكان لها نظرةٌ... آه.. مِن

نظرتها، فكّرتُ كثيرًا أن عينيها صُنِعَتا لثقبِ قلوبِ الآخرين واختراق نواياهم، لا النظرَ إليهم. نظرةٌ منهما تنشر الضلوع، بهدوءٍ ورقّة. عينانِ مثلَ سِردابان أو دهليزان عميقان، لا يُبلَغُ غورُهما أبدًا.

وكنتُ أتساءلُ دومًا، أيّ سِر تخفي؟ هل كانت إيزيس تمتلِكُ مِن الحكمة ما يمكّنها مِن إسداء النصيحة لكل إنسانٍ؟ كيف كانت تعثرُ على الكلام الصحيح عندما يحتاجُ الناسَ النصيحة؟ هل كانت ساحرةً فعلًا؟ وهل كانت بالفعلِ تتنبأ بالمستقبل بشكلٍ ما؟ الحقيقة أنني لمْ أعثرْ على إجابةٍ سوى مِن رجاء. قالت إنّ إيزيس كانت تُجيدُ فنّ الإصغاءِ إلى الآخرين، فنّ الاستماع، والإنصات. كانت تُعطي الآخرين انطباعًا أنّ ما يقولونه مهّمٌ، مهّمٌ جدًّا، وأنّه حقيقي وصادق وجدير بالاستماع. وكان هذا يُريح الناس كثيرًا. أنْ يسمعوا ما يودون سماعه؛ تنظرُ بعينيها الداكنتيْن إلى مَنْ يشكي لها أو يطلبُ مشورتها بابتسامةٍ حقيقة، فيحسّ ذلك الشخص بطاقةٍ عجيبة تتولّدُ داخلَه. فمثلًا كانت حينَ تحكي لها صديقةٌ أنها تحسّ أنها فاشلة أو دميمةً ولن تحظى بفرصةٍ في الزواجِ، فهي عاديةٌ، بل أقلّ مِن العادية، واحدةٌ مِن آلاف الفتيات الفقيراتِ، كانت تقول لها: "كلّ فولةٍ ولها كيّال"، والحبّ أعمى ولو كان المُحِبّ بصيرًا. وهكذا كانت تستولي على قلوب الناس وتسحِرَهم. استرحتُ في جِلستي فوقَ البَسطَةِ الرُخامية، فسَرَحْتُ في إيزيس مِن جديد. كانَ

ثمةَ إصيص فخاري ضخم مِن زهور الريحان والفلّ إلى جوارِ قدمي. مدّدتُ يدي اليُسرى لأقطفَ زهرةَ ريحانٍ خضراءَ نَضِرة، فركتُها في يدي اليُمنَى ووضعتُ نِثارَ الريحان داخلَ جيب القميصِ كما كانت تفعلُ إيزيس.

آخر ما أذكره عنها، وكان ذلك منذ خمس وعشرين سَنَة بعدَ زواجي مِن "رجاء"، أنها كانتْ ما تزال في وظيفتها أمينة مكتبة المدرسة. ساعاتُ العملِ محدودة، وكذلك الاختلاط بالبَشرِ. أوكلَتْ إليها إدارةُ المَدرسة التفاوضَ لتزويدِ مكتبة المدرسة بالكتب الجديدة، فكانت تَقضي نصف اليومِ الأول في أداء عمِلها داخل مكتبة المَدرسة، وتقضي فترة بعدَ العصرِ في ترتيب الكتبِ الجديدة الوارِدة إلى مَكتبة المَدرسة. وكثيرًا ما كان الوقتُ يمتدُ بها إلى ساعاتٍ متأخرةٍ مِن المساء، وهي منكبّة فوقَ مكتبها تؤرشِف وتبوِّب الكتبَ بحسب تاريخ الورود والتخصص. كانت "إيزيس" معروفةً بهوايةٍ أخرى عجيبة؛ هواية تسببتْ لها في بعضِ المُشكِلاتِ والمتاعب مع أصدقائها. اتَّهمها بعضُ الجهّال مِن أبناء الحي أنها "ساحِرة". لم يَكذِبوا. كانت ساحرةً بحق. لكنّ سِحرَها كان مِن نوعٍ خاص، إذ كانتْ تتمتع بقدرةٍ عجيبة على قراءة الطالِع، ولمْ تكن هوايتها نوعًا مِن الدجَلِ أو الشعوذة، فهي لم تتقاضَ يومًا قِرشًا على نصيحةٍ أو قراءة بَختٍ أو طالِع. بالعكس،

كانتْ تُنفِق مِن جيبِها الخاصِ أموالًا، فتعطِيها لِئلّا تكتشِف أنّ طالِعَهم سَيِء، أو أنّ القدرَ يحمِل لهم شرًا.

كانت تشعرُ نحوَهم بتعاطفٍ شديدٍ، بل إنها كانت تبكي طوالَ الليل، إذا ما قرأت لفتاةٍ.. غير مباشرة.. تلفت النظر.. تُلمِّح ولا تُصَرِّح.. وليس لأي أحدٍ، لِئلّا ترتاح إليهم فقط. المقرّبون منها، ومِنهم المرحومة رجاء، كانوا يقولون إنّ إيزيس تحمِلُ بَرَكةً غامضةً من نوع خاص، بَرَكة إلهية ومِنحة ربّانية، وليست مُكتَسَبة. حتى في طريقة الإفصاحِ عن رؤاها لأصدقائها، كانتْ تلمِّحُ ولا تُصَرِّحُ، تُنيرُ الطريقَ ولا تُشير إليه. وكانت وحيدةً على الدوام مثلَ راهبةٍ في دير معزول. مشغولةً في القراءة أو في تأملّ النجوم لساعاتٍ فوقَ مِقعدٍ خشبي قديم فوق سطح العِمارة إلى جوار عشّة قديمةٍ مِن الخوص. قال الناسُ عنها حكاياتٍ كثيرة، لمْ أصدّق كثيرًا مِنها، ونظرًا لحساسية موقِفي لمعرفتي السابِقة بها، بل التي تسبق معرفتي برجاء. لم أخُض كثيرًا في تفاصيل هذه القصص. لم تكن إيزيس قدِّيسةً ربانية مثل الأم تيريزا، فلمْ تُشفِ المَرضَى ولم تُبريء العميان ولا العرجان ولا البرصان، لكنها كانت قدِّيسةً أرضية، ترمِي الخبزَ على وجه الماء، ولا تنتظر مقابِلًا.

قيلَ إنها كانت تساعد الطالباتِ اليتيمات، في مراجعة دروس كلّ المواد قبل الامتحان في مكتبة المَدرسة. المواد كلها، حتى العلوم

والرياضيات بالرغم مِن أنها تخرّجت في كلية الآداب قِسم وثائق ومكتبات، وخِبرتها معدومة في المواد العملية والعلمية. إلا أنّ قراءةً واحدةً للمُقَرر الدِراسي كانت كفيلةً بجعلها تفهم كل شيء. كانت إيزيس تجلِسُ في المكتبة بعد انتهاء اليومِ الدِراسي مع التلميذات لشرح الدروس، ثمّ بدأتْ تفعل ذلك أثناءَ فترة "الفُسْحَة" نظرًا لصدور أمرٍ إداري مِن ناظرة المَدرسة بعدم إبقاء التلميذات دون سببٍ بعد انتهاء اليوم الدِراسي. بل حتى مسألة شرحِها لدروس موادّ أخرى مثل العلوم والدراسات الاجتماعية والرياضيات تسبّبتْ لها في مشكلاتٍ عديدة مع مدرِّسات المواد. لكن يبدو أنّ حُبّ التلميذات ودعاءَ أولياء الأمور كان حائطَ صدٍّ ربّاني بينها وبينَ أي أذى.

وفي أوقاتِ فراغها، إنْ كان لديها ما يمكن أنْ نسميّه وقتَ فراغٍ، كانت تحيكُ الملابس وتصنع لنفسها ولرجاء مفارِشَ مائدة مِن التريكو، وكوفيّات صوفية بألوانٍ مختلفة. كسوة الشتاء لها ولرجاء بالكامل كانت مِن صُنع يد إيزيس. وهل أنسى يومًا عشّة الفِراخ؟ تلك التي بناها أبوها في أواخرِ الستينيات، كنا ما نزال في فترة المراهَقة. كان السببُ وراءَ بناءِ هذه العشّة هو عدم قدرة أبيها، الأستاذ مسعد، على شراء مروحة مِن مراوح المصانع الحربية لتخفيف درجة الحرارة القاسية. فقدْ كان سقف شقّتهم مصنوعًا مِن الطوب الأحمر ومغطّى

بطبقةٍ مِن المشمع الجِلد. وكانت شمسُ الصيف قاسيةً شديدة القسوة، عموديةً فوقَ سطح العِمارة كأنها سيفٌ مسلّطٌ على رءوس العِبادِ. والصهدُ الخارِج مِن الشمس يكتمُ على أنفاسهِم مثلَ كابوسٍ أبدي. فاخترَعَ الأستاذ مسعد هذه الحيلة، بناها في ركنٍ يغمره الظلّ في أغلبِ أوقاتِ النهار. وكانَ الظلّ يأتي مِن عمارةٍ مجاورةٍ، تُلقي ظِلَّها على زاويةٍ مربعةٍ صغيرةٍ لا تتجاوز مترَيْن في مِتر.

كانت أقربَ إلى تكعيبة العِنب، أو لِنَقُلْ عُشّةً مربعة. كان عمودُ العُشّة عِبارة عن نِصف جذع نخلةٍ قديم أرسلَه أحد أبناء عمومة الأستاذ ناجي مِن قريتِه بسوهاج. فحمَلَه فوقَ ظهرِه وصعدَ به إلى السطح. وثبّتَه بالأسمنتِ وسطَ أربعةِ قوالبَ طوبٍ حمراءَ. وكلّ ركنٍ عبارة عن عَصَا طويلة صلبة. وكانت هذه الأعمدة الأربعة مغطاةً بالبوصِ المجدولِ، أمّا السقفُ فكان مجموعة كثيفة مِن اللبلاب ذي أوراقٍ خضراءَ عريضة وبراعمَ نامية في كلّ طرفٍ مِن أطرافه. أمام البابِ مجموعة مِن أصص الزهور؛ ريحان وفُلّ وياسمين. إلا أنها لمْ تمتلىء يومًا بالدواجِن، كانت مظلةً واستراحةَ مُحاربٍ يَقِيه وهجَ الصيف.

وكانت حجرة إيزيس في شقتّها الصغيرة مكدّسةً بأكوامٍ مِن الكتب، لم تكن تشتري كتُبًا قَط، كانت تستعير الكتبَ مِن مكتبات جميع المدارس؛ حيث استطاعت توطيدَ علاقاتها بأمِينات مكتبات جميع

المدارس المجاوِرة: مَدرسة الفرير، المَدرسة المارونية، ومَدرسة الفرير المعروفة باسم الكولاج دي لاسال، والمَدرسة البطريكية، ومَدرسة القلب المقدس، ومَدرسة سان فان سان دي بول، ومَدرسة الجيزويت. هذا بالإضافة إلى ترددها المستمرّ على دير الآباء الدومينيكان في شارع مصنع الطرابيش بحي الضاهر. كانت شِبه مقيمةً في مكتبة المَعهد. آه.. متى كانَ ذلكَ..؟ أعتقِد أنه كان سَنة ١٩٧٩.. أو ربما ١٩٨٠...

الغريب أيضًا، أنني لمْ أرَهَا يومًا ترتدي نظارة، وكأنها كانتْ تقرأ الكتبَ بعيون أخرى داخلية؛ عيون لا تُرهِقها كثرة القراءة ولا المطالَعة. وحتى يومَ زواجِي مِن رجاء، لم أسمع يومًا أنّ لها صديقًا أو حبيبًا، ولا وصلَ إلى عِلمي أنها خُطِبتْ أو تزوجت.

انطفأ نورُ مِصباحِ السلّم، وسادت لحظةُ ظلامٍ حالِك، أخرجتُ تليفوني المحمول النوكيا وأضأتُ الكشّافَ لأبحثَ عن مفتاحِ الكهرباء، ضغطتُ على المقبس فأوَمَضَ في عينَي نورٌ باهر. نظرتُ إلى الساعة لكنّ عقارب الساعة قد توقّفتْ عِند الخامسة مساءً، وقتَ أنْ غادرتُ سيارة مسيو عادل خيري. صحيح.. نسيتُ أن أسألَ السائق عن اسمِه، كمْ مرّ على وجودي هنا؟ ثوانٍ؟ دقائق؟ نصف ساعة؟ لا أعلم.

واصلتُ صعود درجات السُلمِ، التي كانت بالرغمِ مِن تجديدها

عصيّةً، هل كانت درجات السلَّمِ تقاوِمُ الجاذبيةَ أم تعانِد الزمن؟ أمْ ربما هي رغبتي في البحثِ عن الزمنِ المفقود؟ هل أجِد إيزيس؟ هل تُراها ما تزال تَذكرني؟ هل ما تزال على قيدِ الحياةِ بالأساس؟ يفصِلني عن الإجابة دقائق، وبضع درجات.

وصلتُ الطابِق الثاني، حيث شقة أسرة المرحومة رجاء هلال، زوجتي.

سَترُ ربِنا أنّ بطارية تليفوني المحمول كانت مشحونةً تمامًا. أضأتُ كشّافَ المحمولِ لأتلمَّسَ موضع مقبس نور السلّم. كان مصباحَ الطابق الثاني مِن المصابيح النيون البيضاء. فبدا المكانُ أكثرَ وضوحًا.

رحتُ أتأمل البابَ الخشبي لشقةِ المرحومة رجاء. شُرّاعةُ البابِ كانتْ مصابةً بشرخٍ عميقٍ، شرخ يَسمح بتسلل قَدْرٍ مِن الضوء الآتي مِن شُبّاكِ الصالة ناحيتي. دنوتُ برأسي مِن الشرخِ الكبير، وقرّبتُ عيني مِن الزجاج، محاوِلًا التلصّصَ بسذاجةِ المراهقين لرؤية أي شيءٍ بالداخل، فارتدّ إليَّ البصر خيبة أمل راكبة جَمل. قَرّبتُ أذُني مِن الباب، وانتظرتُ لحظاتٍ، فجاء الجَملُ جَمَلَيْن. كان أصيص الريحانِ القديم ما يزال في مكانه.

قطفتُ زهرةَ ريحانٍ خضراءَ نضِرة وفركتها في يدي اليُمنى ثمّ

وضعتُ نِثارَ الريحان داخلَ جيب القميصِ كما تعلَّمتْ "رجاء" مِن إيزيس. لعبَتْ الرائحةُ برأسي، وفتحتْ ثقبًا جديدًا داخلَ ذاكِرَتي. قَرَّبتُ رأسي مِن جديد. كان المشهدُ هذه المرّة مختَلِفًا. مِن شرخِ شُرَّاعة الباب، تمايلتْ أمامي مَشاهد حَيةٌ كاملة مِن الزمن الآخر.

كانت رجاء يتيمةَ الأمّ والأب، أو مات أبوها وهي في العاشِرة، ثمّ توفيّتْ أمها بعدَه بسبعِ سنواتٍ، وقتَها كانت رجاء على أعتاب الجامعة. حصلَتْ على مجموعٍ متواضع في الثانوية العامة، فجاء التنسيق في كلية التربية جامعة أسيوط. رفضَتْ الذهابَ إلى أسيوط، ولم يكن ذلك مِن باب البَطَر، وإنما مِن باب الحاجة. فاكتفت بشهادة الثانوية العامة، وبدأتْ في البحثِ عن وظيفةٍ بهذه الشهادة المتوسطة. أسرةُ رجاء كانت متواضعة ماديًا إلى أقصى حَد. إلا أن المرحومة "زكيّة" أمها كانت عفيفة، تربطُ على نفسها وعلى ابنتِها حجرًا مِن الصوان، تصونُ به كرامَتها. كان مصدرُ الدخلِ الوحيد لحَماتي الست زكية هو معاشِ زوجها الذي كان يعمل فَنيّ خِراطة في أحدِ مصانع الحديد والصلب في حلوان وتوفيّ بسبب سرطانٍ في الرئة. وكانت تعمل في تجارةٍ بسيطة، تشترى بالآجِلِ الزبدَ والسمن الفلاحي والقشدة واللبن الجاموسي مِن تاجرٍ معرفةٍ، يعيش في قرية "البَلَيَنا" وكان يتردد على القاهرة، وتبيعه لسكان العمارة والحَي، وكانت تحقق جنيهاتٍ قليلة كلّ شهر، تساعدها

في نفقات الحياة. آه يا سِت زكية على رائحة "المُرتة" البلدي والعِيش البَتّاو الذي كانت تخبِزه أختها وتعيش عليه الأسرة طوال الشهر حتى الزيارة التالية.

عاشت رجاء مع والدتها بدون أي طموح. بعد جهدٍ ومعافَرةٍ طويلة ووساطةٍ مِن المتعاطفين على حالِها، تمكّنت مِن الحصولِ على وظيفة بسيطة، مراجِعة درَجة سادسة في مكتب تموين حَي الضاهر. تقوم بتحرير البطاقات التموينية وفرز أوراق المتقدمين للحصول على بطاقة تموين وأرشفتها في ملفاتٍ خضراءَ سميكة. حياتها لم تَخرج عن دائرةٍ مُغلقة، مِن مكتب التموين الضيّق إلى البيت، ومِن البيتِ إلى مكتب التموين الضيّق. حياةٌ روتينية كئيبة، لا تأمَلُ في أكثر مِن كوب شاي وحدَها في شُرفة شقتها المطّلة على شارع "عوني". تُغلِقُ البابَ على نفسها بقفلٍ ومسوجَر بعدَ عودتها مِن مكتب التموين في الثالثة عصر كلّ يوم.

لم يكن يزورها سوى عمّها، الذي كان يَقدمُ وزوجته في الأعيادِ لا مِن بابِ السؤال عليها، ولكن لتقضية يومَيْن في حديقة الحيوانات في الجيزة. كانت رجاء فتاةً عادية الملامح، لا تتمتع بجَمالٍ خاص، متوسطة القوام والطول، ذاتَ بشرةٍ بيضاءَ وشَعرٍ بُنّي قصير، ومؤخرة مُمْتلئة قليلًا. بعدَ تعرّفي عليها حكَت لي أنّها لم تَيأس قَط مِن الحصول على

عريس، لسببٍ بسيط، أنها لم يواتِها الأمل مِن الأساس في الحصول على زوج. كانت الفكرةُ غيرَ مطروحةٍ لأسبابٍ منطقية مِن وجهة نظرِها، فمَنْ الذي يخطِب فتاةً يتيمة فقيرة، مرتّبها بالكادِ يكفيها؟ فقيرٌ مِثلها؟ ولِمْ؟ هي المَشرحة ناقصة قُتَلى. كانت رجاء تؤمِنُ أنّ لكلّ إنسان قَدَره في الدُنيا، وأنّ سعادة الإنسان الحقيقية تكمن في قدرته على التكيّفِ مع هذا القَدَرِ. ليلًا ونهارًا كانت منكمِشةً بينَ جدرانِ شقتها الصغيرة العجوزِ. لم يكن يواسيها في حياتها ولا يعزّيها سوى شخصٍ واحدٍ فقط؛ إيزيس، صديقتها الساكِنة في الطابقِ الأخير، فوقَ السطح. في شقةٍ قريبةٍ مِن قِمة العالَم. كثيرًا ما كانت إيزيس تزورُ رجاء في شقتها. يجلِسان في الشرفة يشربانِ الشاي ويغمِسانه بالبقسماط السادة، يَسمَعَان نجاة الصغيرة أو وردة. تحكي كلّ منهما حكاياتِ العمل للأخرى. كانا يتبادلان آمالًا مدفونةً، وأمانيّ مكتومة لا تبوحُ بها الشفتَان. كانتا صديقتين حقيقيتيْن.

تذكّرتُ كلام المرحومة رجاء الدائمِ عن إيزيس:

".. وهل خَلَقَ الله مثل إيزيس يا ماضي؟ هل تعرِف أنها مَن دلّتني على موضوع القراءة لتسلية وقتي الطويل..؟ كانت تجلِب لي روايات يوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ومحمد زكي عبد القادِر.. وكنا نجلِس معًا فوق سطحِ عِمارتنا، فوق مائدة الطعام التي كانت تنقلها للخارجِ مساءَ كلّ يوم، ونجلس حولها. تدخل

لتجلبَ الترمس المُمَلَّح وتعصر فوقه ليمونًا وخَلًا وكمّونًا. تُدير الراديو الترانزستور على إذاعة أم كلثوم، ونثرثِر بالساعات. كنتُ أحسّ في أحيانٍ كثيرة أنّ الله عوّضني خيرًا بعد وفاة أبي -الله يرحمه- لم أشعرْ يومًا أنها صديقة، بل أُخت وأقرَب". إلا أنني لمْ أسألها يومًا عن سببِ فتورِ بل انقطاع العلاقةِ معها بعدَ فترةٍ وجيزةٍ مِن زواجِنا. وكان سبب ذلكَ خوفي على مشاعر رجاء، وخاصةً بعد أنْ أكّدَ لها جميع الأطباء استحالةَ الإنجاب.

البَسطَة الرُخامية موجودة في كلّ طابق. المرحوم صاحب العِمارة كان طيّب القلب. صعدتُ الطابقَ بسهولةٍ عجيبة، وكأني تحمِلُني ريحٌ هادئةٌ. توقّفتُ قليلًا قبل صعودِ آخرِ درجةٍ من درجات السُلَّمِ. غَلبَت عليّ مهنتي القديمة،وأخذتُ أفكّر في تداعيات اسم إيزيس، وهي فِكرةٌ لم تخطرُ ببالي قَط، بالرغم من أنني كنتُ متخصِصًا في التاريخ المصري القديم. أفقتُ مِن حصة التاريخ إثرَ اصطدامِ قدمي بعتبةٍ مِن الرخامِ الأبيض، تَلَتْ آخرَ درجات السُلَّمِ. لمْ أفهمْ سبب وجودِ قطعةِ الرخامِ هذه في نهاية السُلّم. عتبة تحوش ماذا؟.

ولكن، أليسَ للعتباتِ سِحرٌ لا يُقاوَم؟ وربما تنطوي على أسرارٍ لا يستطيعُ فهمَها سوى شاعرٍ أو كاهن أو عرّاف؟ ألا تَمرّ فوقها

أقدامنا طول الحياة خروجًا ودخولًا، حتى تبلغَ العتبة الأخيرة، التي ليسَ بعدها خروجٌ ولا دخول؟ بينما أخطو العتبَة بقدمي اليُمني، جالَت بخاطِري عتبة منزِلنا القديم في الزيتون. كنتُ ما أزالُ في السابعة أو الثامِنة مِن عُمري، أنتظِرُ عودةَ أميّ مِن عملها، في شقة جارتِنا الست "أم عادل"، الجالسة على الدوامِ على كرسي متحرّكٍ فوقَ عتبة البَسطةِ الأخيرة، تراقِبني كي لا أقعَ وأنا ألعب على بسطةَ السّلمِ بعد عودتي مِن المَدرسة، وحينَ أشعرُ بالجوعِ تدفع عجلاتِ كرسيها نحو الداخل وتجلب لي طبق أرز بلبن أو عاشوراء. وحينَ أسمعُ أنفاس أمّي وهي تصعدُ السّلم، أجري نحوَ الست أم عادل، وأقبّل يدَها الممدودة بالمسبحة الطويلة، فتجذِب كفيّ الأيمن وتقبّله هي الأخرى، وتدعو لي أن يباركني يسوع المسيح. كانتْ الستّ أم عادل علامةً مِن علامات الطريق، عتبةً مُبارَكة، تُشِعُّ أُلفَةً وبَرَكةً وحَنانًا.

خطوتُ العتبة بقدمي اليُمنى، مشيتُ بِضعَ خُطواتٍ في ساحة السطح. كانت هيئة سطح العِمارةِ على حالها كما تركتها منذ ثلاثين عامًا. الجنّة تركتها هنا، والجنّة الوحيدة هي الجنّة المتروكة. روحٌ وريحان يغمران المكان كأنني زائر الجَنة. أنوار أعمدة الإنارة المحيطة بالعِمارة كانت تضيء السطح بقدرٍ معقول.

لمحتُ بابَ الشقةِ مفتوحًا، إلا أنّ أنوار الشقة كانت مطفأةً تمامًا. مذياعٌ قديمٌ معلّقٌ في مكان لا أراه، يذيعُ أغنيةً قديمة لوردة، أغنية لم يكن يسمعها سوانا.

أنده عليك بالحب تجيني

واشتاق إليك تحلوّ سنيني

وأخاف عليك أكتر من عيني

وأنا وانت اتنين عايشين

في هوانا أحلى سنين

وف كل مكان يشوفونا

يلاقونا إحنا الاتنين

ورأيتُها... إيزيس.. كانت مثلَ الكوكب الغافي في عليائه. تديرُ ظهرَها نحوي، جالسةً فوق كرسي هزّاز. اقتربتُ منها بهدوءٍ خشيةَ أنْ أزعِجها، ولمْ أكن أحِب إزعاجَها أبدًا. قلتُ في نفسي: انتظِر.. تأكّد أولًا أنها هي، ربما ستقطع الآن خلوةَ امرأةٍ لا تعرِفها، غريبة قد لا تَسعَد بمتطفلٍ يقطعُ خُلوتَها. وربما تكون ابنتَها. هل تزوّجتْ إيزيس؟ بمَن؟ الآنَ تَسأل نفسَكَ يا ماضي بِمَن؟ هل نِمتَ طوالَ

ثلاثين سَنة لم تسأل عنها يومًا، لتأتي اليومَ بمحض الصدفة وتسألها بِمَنْ تزوّجتِ؟ أخَذتني رجفةٌ حينَ رأيتُها، جاهدتُ لإخفائها. هي أيضًا كانت تنظرُ نحوي بابتسامةٍ غامِضة وكأنها في حالةِ انتظارٍ خفية. العينان الطيّبتان الرائقتان ما زالَتا تحدّقان نحو سماء الضاهر وكأنهما تناجيان كيانًا ما، أو تنظِران أمرًا ما. اقتربتُ منها قليلًا وهَمَسْتُ:

- إيزيس؟

(الفصل الرابع)

تعيش وتفتكرني أكتر ما أنت فاكرني
إنت الحب اللي ليامن كل الدنيا ديه
وأي حب تاني باختاره وبحرية
ماعدا حبك إنتَ من غير ما اختار آسرني

كلمات: عبد الوهاب محمد

كان الليل قد خيّم على المكان تمامًا. فكّرتُ في الاتصال بالسائق الذي أقلّني، كي أسأله إنْ كان في وسعِه المزيد مِن الانتظار. لمْ أكَدْ أُخرِج التليفون مِن جيبي، حتى فاجأتني رائحةُ بخورٍ قوية عبّقت المكانَ، بخورٌ خليجي مِن النوعِ الذي كانَ يجلِبه سعد ابن أخي سلامَة مِن السعودية، فكنتُ أخفيه في دولاب الخزين الإيديال في المطبخ. لا أنا ولا المرحومة رجاء كنّا نُحِبّ البخور، إلا أنَّ عزيزة الخادِمة التي كانت تأتينا مرةً كلّ شهر لتنظيف المنزل بعد مرضِ رجاء الأخير، الذي استمرَّ سنتين، كانتْ تُشعِلُ عودَ بخورٌ قبلَ أن تنظِّف، ولا أعرِف أينَ عَثرتْ عليه، بنت القديم، فقد أخفيتُه في مكانٍ بعيدٍ. بدتْ فكرة عبقِ البخور وكأنها تتعمدُ شغلي عن التواصلِ معَ أي شخصٍ أعرِفه، كما لو كانتْ تُريد عزلي عن العالمِ في هذه اللحظات. كانت إيزيس قد سبقتني

ببضعَ خطواتٍ، كعادتها. لم تقترِب مني حينَ رأتني. رأيتها تدلفُ داخلَ الشقة وتوقِد مصباحًا أنارَ قليلًا أمامي.

إلا أنّ هذا المصباح أشاع أنوارًا غريبة، زرقاءَ وحمراءَ وصفراء. أحسستُ أنّ ساحةَ السطح تحوّلتْ إلى كونٍ هولوغرافي، بمعنى صورة كبيرة مكوّنة مِن أجزاء صغيرة، وكلّ جزءٍ مِن هذه الأجزاء الصغيرة عبارة عن نسخة مكررة مِن الصورة الكبرى. أمّا الصوّر فكلّها لمَشاهِد مِن حياتي. صورتي وأنا أدخل مِن بابِ العِمارة للمرة الأولى...يا ربي.. كان شاربي كثًّا لا يتناسب إطلاقًا مع نحافة وجهي، بل وجسدي كلّه. آه.. تذّكرتُ.. كنتُ أزور خالي سعيد في الطابق الثاني.. في الشقة المقابِلة لشقة المرحومة رجاء... رجاء أيضًا في الصورة.. كانت تروي أصيصَ الريحان بزجاجة ماء كانت في الأصل عبوةَ لبنٍ مبسّتر مِن إنتاج شركة مصر للألبان. كانتْ الصورة تتحركُ كأني في عرضٍ خاصٍ لفيلمٍ تسجيلي. رأيتُها ورأتْني. وكان خالي يسكن وحدَه بعد وفاة زوجته، وكنتُ أمرّ عليه بشكلٍ شِبه يومي بعدَ مواعيد العمل بالمَدرسة في الوايلي. رآنا خالي سعيد، تنظر نحوي وأنظر نحوَها. فبدأ في التفكير والتدبير.

آه ..تمام.. هذه صورة إيزيس.. وهي تهبِط السُلَّمَ بخطواتٍ هادئة، وتقرعُ جرسَ شقة رجاء.. كان في يدها طبق أرز باللبن.. بليلة..

كُشَري. صورتي أنا وأمّي وأخي سلامة نصعدُ السُلَّم، وأنا أرتدي بذلة كُحلية غامقة وكرافت أحمر ورِثته عن والدي، أحمِل في يدي طبق حلويات شرقية مِن "عرفة الكنفاني" في السيدة زينب، والأستاذ رِضا عمّ رجاء يفتحُ البابَ ويستقبِلنا. زغاريدُ تملأ المكان.. أنتِ في السماء يا رجاء.. يا حبيبتي.

أُطفِيءَ النور.. وعادّ كل شيء كما كان، اختفى المشهد السينمائي السريع، سرعانَ ما رأيتُ إيزيس تُقبِل مِن جديد، متُدثِّرةٍ بشالٍ مِن التريكو. لم أتبين ملامحها بسببِ ظلامِ السَطحِ الذي لمْ يكن يضيئه سوى نورِ القمرِ الفضي. دَنَت مِني إيزيس لامعةً مثلَ قنديلِ بحرٍ متوهجٍ لفَظَه البحر على الشاطيء.

- إيزيس؟

- أمَا زلتَ ترتدي الكوفيةَ الحَمراءَ التي صنَعتُها لرجاء؟

- الكوفيّة الحمراء!!؟ أنتِ إذن السِرّ...ياالله....ثلاثون سَنةً يا إيزيس...لم تفعل بكِ شيئًا

- وأنتَ أيضًا يا ماضي...البقية في حياتك في وفاة رجاء..

- هل علِمتِ بوفاتها؟

- آه.. كنتُ مسافِرةً .. لم أستطِع الحضورَ للعزاء..

- الله يرحمها... وأنتِ؟ كيف أحوالِك.. أحتاجُ سنين لنتكلّم.. فاكرة عشّة الفِراخ يا إيزيس...؟

- الله يرحمه بابا...

- الجوّ باردٌ هنا والوقتُ متأخر.. تعالَ نتحدث داخل الشقة.

في الواقع، لمْ أستطِع فهمَ سبب ذلكَ الفتور الذي قابَلَتْني به، هل كانت مستاءةً مِن قدومي؟ لكنّ ليست هذه طباعَها ولا أخلاقها! بالعكس، شيءٌ ما تألّقَ مِن عينيها قال لي إنها تنتظرُ قدومي، أو على الأقل إنّ زيارتي لها لم تكن مفاجأةً على الإطلاق.

كانت هذه هي المرةَ الأولى التي أدخل فيها شقةَ إيزيس، بالرغمِ مِن تردُّدي على زيارتها مراتٍ قليلة جدًّا بصحبة رجاء، قبل أن تذوي جذوة الصدَاقة بين الصديقتيْن، لسببٍ لمْ أفهمه على الإطلاق.

وحتى مع رجاء، لم نكن ندخل الشقةَ قَط. كنا نجلسُ على مائدةٍ خشبيةٍ صغيرةٍ أمامَ الشقة في حوشِ السطح، متحلّقين كراسي بامبو الويشي التي اشتراها والد إيزيس حولَ أكلة كشري أو طاجن أرز معمّر حلو، وكانت بارِعةً في إعداده، مثلما كانت بارعةً في كل شيءٍ.

دَعَتني للدخولِ بحركةٍ مِن يدِها، وفعلتُ صاغِرًا كأنني مُنَوّم مغناطيسي. وكلما اقتربنا مِن باب الشقة، حيث المصباح الصغير المعلّق فوقَ باب الشقة، كانت ملامحِها تتضِح شيئًا فشيئًا. كنت أشعرُ برهبةٍ غريبة لا أعرِف مصدَرها. كانت إيزيس تسير إلى جِواري بهدوءٍ عجيب لا يتناسب مع حالة صديقيْن يلتقيان للمرة لأولى بعد افتراقٍ دام ثلاثين عامًا أو أقلّ قليلًا. كاد الفضول يقتِلني وأنا أقترِب مِن وجهها لأتفحّصَ ملامحِها. تصوّرت للحظةٍ أنّ ذاكرةَ الزمنِ قد أصابَها عطب، فتعطّلَتْ حينَ أتى على إيزيس الدور كي تَشيخَ مثل بقية مخاليق الله. كانت ملامِح وجهها ما تزال محتفظةً بنقاءِ ونضارةِ الزمنِ القديم. وجهها الأسمر الرقيق لم يَخُطّ فيه الزمن أيَّ خَط، ولو صدفة. كانتْ أجملَ وأنقى مما تركتُها، أقصدُ مما تركناها عليه. كانتْ أشبَهَ بالحوريات التي يرِدُ ذِكرها في الأساطير، حوريةٌ خَمْريةٌ، شَعرُها الأسودُ القصير تخلّلته ربما عنوةً شعيراتٌ بيضاء على قمّة رأسها وعند أُذُنيها، شعيراتٌ بيضاء تقول على استحياء إنها مندوب خائِبٌ أرسله الزمن ليقولَ كلمة خائبة مِثلَه.

ثغرُها الصغير كان يَفتَرُّ عن الابتسامةِ الغامِضة المرِنة نفسِها التي ودّعَتنا بها آخرَ مرّةٍ قبل عقودٍ طويلة. ابتسامةٌ مثلَ موجةٍ صغيرةٍ مِن النسيم، لا تقول شيئًا. وتقولُ كلّ شيء.

نظَرَتْ نحوي وقالت:.

- تفضل يا ماضي...زي بيتك..

- وأكثر طبعًا يا إيزيس..

كان للشقةِ مِن الداخلِ رائحةٌ عجيبة، رائحة ريحان مفروك، ورائحة قرنفل. رائحة شيء ما يُخبَز لتوّه في الفُرن. شيءٌ لا أعرِف كُنهَه، ولكنّه يَبعثُ على الدفء. لاحظتُ أنّ بلاطَ الصالةِ القديم قد أزيلَ واستُبدِلَ ببلاطٍ مِن الخشب الباركيه. ربما لإسباغِ مزيدٍ مِن الدفء على الشقة في أيامِ الشتاء.

توسّطتْ الصالةَ المائدةُ الخشبية نفسُها التي كنا نجلِسُ عليها في الخارِج، فوقها مفرشٌ أخضر في أبيض، نُقِشَتْ عليه رسومٌ فرعونية. لكن كراسي بامبو الويشي قدْ استُبدِلتْ بكُرسِيان خَشَبيان بقاعدةٍ مِن الأسفنج، مغطاةٍ بفَرشٍ مِن القطيفة الحمراء الموشّاة بخطوطٍ ذهبية. جدران الشقةِ كانت مطليةً بطلاءٍ أبيضَ ناصع البياض كأنني في مستشفى، فخمّنتُ أن إيزيس قد أعادتْ طِلاءَ الشقة بعدَ عودتِها مِن السفرِ كما قالت. كان الجِدارُ الأمامي خاليًا تمامًا كأنه شاشة عرضٍ سينمائي تتأهبُ لسقوطِ أشعةِ العرض السينمائي فوقَها. تعجّبتُ، ولا حتى صورة لأبيها المرحوم ناجي، ولا لأمّها. هل تزوّجَت؟ بالطبع لا، وإلا كانت وضَعت صورَ زوجِها وأولادِها.

يا رجل..فُقْ مِن النوم..هيه لو كانت متزوجة ولا عندها أولاد، كانت هاتفضل عايشة لوحدها هنا؟

أمّا الجِدار المقابِل فكانَ مُزيّنًا بصورة عملاقة تَشغَل مساحة الجِدارِ بأكمله. صورةٌ لزهرةِ لوتسٍ عِملاقة، لكن يبدو أن الصورةَ كانت مِن النوعِ القلّاب، الذي يتغير كل دقيقة. انتظرتُ ثانيتيْن فوجدتُ خلفية اللوحة التي كانت عبارة عن منظر نيلٍ أو نهرٍ واسع تتحول إلى لونٍ أسودَ حالِك، فتختفِي زهرةُ اللوتس داخل ظُلمةِ مياه النهرِ السوداء، وبعد ثانيتيْن تتحول خلفية الصورة إلى اللون الأبيض الناصِع، فتَظهر زهرة اللوتس مِن جديد، أسفلَ اللوحة عُلِّق ميزانٌ ضخم، اقتربتُ قليلًا لأتفحّصَ شكلَه، فلاحظتُ أنّه مصنوعٌ مِن العاجِ الأسود، وعِندَ قاعِدة الميزان وقفَ وحشٌ كاسِر أنثوي الهيئة، يرتدي ملابس فرعونية، كُتِبَ أسفلَها بالإنجليزية **Ammit** .

في اللحظاتِ التي كنتُ أتأملُ فيها الشقة، كانتْ إيزيس قد اختفَتْ داخل المطبخ لإعدادِ القهوة. ابتسمتُ لأنها ما تزال تَذكرُ أنني كنتُ أحبُ شُربَ القهوة في هذا التوقيت، بداية المساء. إلا أنني توقفتُ عن الابتسامِ عندما فكّرتُ أنها لم تسألني إن كنتُ أريدُ شُربَ قهوة أم شايًا أم مشروبًا آخر؟.

الجدارُ الأيمن كانَ مجوّفًا مِن المنتصفِ بنافذةٍ صغيرةٍ. شُبّاك مربّع له ضلفةٌ مِن السلك الألومونيوم، تعلوه ستارةٌ مُشْرَعةٌ مِن القطيفةِ الخضراء الثقيلة. أسفلَ الشُّباكِ منضدةٌ وطِئة فوقَها مجموعةٌ مِن الكتب والروايات العربية والإنجليزية والفرنسية. اقتربتُ قليلًا مِن المائدة وسَحبتُ كرسيًا وجلستُ فوقَه، وبَصري معلّق ناحية الثقبِ الذي اختفَتْ داخله إيزيس. أخرجتُ التليفونَ المحمول مِن جيبي. كان مؤشر شحن البطارية ما يزال في المنتصف، فاسترحتُ لفكرة أنني سأتمكن مِن الاتصال بالسائق كي يعيدَني إلى المنزل.

لحظاتٌ وخرجَت إيزيس حامِلةً صينيةً فضيةً صغيرة فوقَها فنجانان مِن القهوةِ. اقتربَتْ مِني وهي تبتسم. أضاءتْ أباجورةً طويلةً كانتْ إلى جوارِ الكرسي الذي ناحيتَها، أنارَتْ المكانَ لمبةٌ هالوجين قوية، صنعتْ حولَنا بقعةَ نورٍ برتقالي.

كان للقهوةِ رائحةٌ غريبةٌ، رأيتُ بخارَها يفوحُ ويتدفّقُ ببطء ودلالٍ عجيبَيْنِ، وبدا البخارُ المتُصاعِدُ مِن فنجانِ القهوةِ مثل جِنيّ يقفِز مِن مصباحِه، سألتُها:

- قهوة في وقتٍ متأخرٍ يا إيزيس؟ كم الساعة الآن؟

- دَع الساعةَ تستريح..

كانت إجاباتها دائمًا ما تُخرِسُ لساني، سألتُها ثانيةً:

- للقهوةِ رائحةٌ عجيبةٌ يا إيزيس.. مِن أينَ هذه القهوة؟

- أصنعها بنفسي

- يعني إيه.. تزرعينها ثمّ تحمصينها هُنا..؟

لم تُجِب أيضًا، وقالت بابتسامةٍ فقيرة:

- أصطبرُ بها...

طلبتُ مِن إيزيس دخولَ دورةِ المياة. البردُ ومرض السكّري. هزّتْ رأسَها وقالت: طبعًا تفضّل.

نهضتُ مِن مقعدي، وانعطفتُ يمينًا. تركْتُ أولَ غرفةٍ مغلقةٍ، وفتحتُ باب الثانية، ثمّ مددتُ ذراعي بحركةٍ آليةٍ لأشعل المصباح. لكنّ إيزيس لم تَصِف لي مكان دورة المياه؟ وكيف عَرَفت أن زرّ مصباح الحمّام مِن الداخل؟.

غسلتُ يدي وأنا أنظرُ إلى مِرآة الحمّام. جففت يدَيّ وخرجتُ، وكلّ همومِ الدنيا فوقَ رأسي. كنتُ قد تذكّرتُ أنني دخلتُ دورة المياه هذه قبل ذلك في زمنٍ آخر وظروفٍ أخرى.

عُدتُ إلى مِقعدي، وأكملتُ بقايا القهوة، سألتَني إيزيس عن

رأيي، فأجبتُها:

- تَذكّرني بفنجان القهوة الأخير الذي شربناه معَ المرحومة رجاء في شقتنا في الزيتون.. هل تذكرين تلكَ الليلة إيزيس؟ ليلتَها.. جاءنا خبر وفاة خالة رجاء الوحيدة "وطنية" على تليفون المنزلِ.. فأصرّتْ على السفرِ في الليلة نفسِها إلى سوهاج على أول قطار، وطَلَبَتْ مِني توصيلَكِ إلى شقتكِ هذه لأن الوقتَ كان متأخِرًا. لم تتركني أسافر معها بسبب إشرافي على لجنة امتحانات نصف السنة في المَدرسة.. اليوم التالي كان أول يوم امتحان.. هل تذكرين؟.

- فضَّلَتْ رجاء مصلحتكَ يا ماضي وفضَّلتني على نفسِها... ومَن يَنسَى رجاء؟

- لكنّ هذه القطيعة الطويلة كانت تقول العكسَ يا إيزيس.. كانت تقول إنّكِ نسيتِ كلّ شيء..

رشفتْ جرعةً واحدةً، ثمّ رَفَعتْ رأسهَا إلى السماء وكأنها تفكّر في شيءٍ وقالت:

- هناكَ أشياء لكثرةِ ما نفكّر فيها، يعتقدُ الآخرون أننا نسيناها.

- وماذا كنتِ تفعلين طوال هذه السنوات؟.

- كنتُ أشرب القهوة وأنام مبكرًا.

– وهل القهوة تُنسِي؟ هل ترين القهوةَ خمرًا؟.

– هل تعرِف أيضًا أنّ القهوة اسم مِن أسماء الخَمر في المعاجم العربية..؟ الفيروز آبادي مثلًا.

– ومَن الذي يقدِرُ على إيزيس..؟ ولكن أمَا زلتِ تسكنين هذه الشقة؟.

– ماضي.. لقد صِرتُ جزءًا مِن هذه الشقة.. جدرانها وفَرشها القديم.. خزانة الملابس الخشبية، سرير أبي ووسادته التي كانتْ تمنحني أحلامَها التي شرِبتها مِن عَرق أبي وأمي.. الكؤوس التي كانوا يشربون فيها.. أنا سمَكةٌ.. إنْ خرجتُ مِن محيطِ شقتي أموت.

– طيّب.. احكي لي.. أريد معرِفة كلّ شيء.. قادتني قدماي.. بل ساقتني الصُدفة إلى هنا..

– الصدفة هي صوتُ قلوبِنا الذي نكتمه يا ماضي.

رفعتُ فنجان القهوة ورشفتُ رشفةً ثانية. كان للقهوةِ مذاقٌ جميل، لكنه غريب. شيءٌ مثلَ القهوة الخضراء، له أرومة نفّاذة تخترقُ شعيراتِ الأنف. أخذتني رجفةٌ انتفضتُ لها، فسألتْني:

– بردان؟ سأشعلُ المدفأة..

نهَضتْ إيزيس مِن الكرسي وسارتَ بضعَ خطوات. كان هناكَ مِدفأتان هالوجين لكل واحدةٍ أربعُ شمعات، الأولى بالقربِ مِن مقعدي، والثانية آخر الصالة. أشعَلَت المِدفأةَ الأولى، وانتظَرَتْ بضعَ ثوانٍ حتى تتأكدَ مِن احمرار الشمعات الأربعة، ثمّ سارتْ نحو المِدفأة الثانيةِ وأشعلتها. بقيت إيزيس واقفةً لبرهةٍ حتى تأكّدَت مِن عملَ المدفأتيْن. لم تَمرّ دقيقةٌ واحدة حتى أضاءَ الصالةَ نورٌ أصفر قوي، انعكسَ ضياؤه فوقَ الأرضية الباركيه، فصنعَ هالةً مِن النورِ حولَنا. صحيحٌ أنَّ إيزيس لم تُشعِل المِدفأة إلا منذ ثوانٍ، إلا أنّ دِفئًا عجيبًا غمرَ المكانَ بأسرِه. مِن مِقعدي لمحتُ على الجِدار الأيمن بورتريه شخصيًّا لشابٍ صغيرِ السِن. تذكّرتُ أنني لم أرَه حينَ دَخَلت الشقة منذ دقائق. لم أميّز مِن البعد تفاصيلَ الصورة، ظننتُ أن الصورةَ قدْ نُزِعَتْ مِن الإطارِ. كانت صورةً مرسومةً بالفَحمِ لشابٍ قريبِ الشبَه مِني، إلا أنه أصغر بكثير، بكثيرٍ جدًّا. سألتُها:

– هل هذا ابنُكِ؟

لمْ تُجِبْ وسألتْني كأنها لم تَسمع سؤالي مِن الأساس، مع يقيني أنّ صوتي كان قويًّا وسط الصمت الذي كان يلفّ المكان:

– هل الغرفة أدفأ الآن؟

– آه..طبعًا... لا تريدين الإجابة.. تمام ...افتقدتُكِ يا إيزيس جدًّا..

– وأنتَ أيضًا يا ماضي... كمّ مضى على اللقاء الأخير؟

– ثلاثون سَنة.... ماذا فعلتِ يا إيزيس بالسنين وماذا فعلَتْ بكِ السنون؟

– السنون قد تمرُّ بنا، لكن بعض اللحظاتِ تعود.

– سأحكي لكَ كلّ شيءٍ بالتفصيل... أكمِل قهوتَك..

– لماذا؟ الليل وآخره؟

– ولن يكفي...

– طيب.. متى تَبدئين الكلام.. أنا منتظِر..

– لن أتكلّم.. أريد أن تكونَ معي

استكنتُ فوقَ الكرسي الخشبي الذي بدا مثلَ فراشٍ دافِء. لم تُخطِيء إيزيس يومًا في شيءٍ قَط. نحن في أوائل الستينيات مِن عُمرِنا، لا نحتاجُ في هذه السن سوى فراشٍ دافِء وقهوةٍ ساخِنة. بدأ الدفء يغزو صالةَ الشقة تدريجيًّا حتى تمكّن مِنها، ويبدو أنني تَملْتُ مِن فنجان القهوة التي سقتني إيزيس إياه، ففردتُ قدمَي فوقَ وسادةٍ ثخينةٍ لمحتها تحت مشطِ رِجلي مباشرة. ضحكتُ لأنني تخيّلتُ لوهلةٍ أنّ كلّ ذلك

كان حُلمًا في الكرى. غيرَ أنّ صفيرَ رسائلِ الموبايل القصيرة التي كنتُ أسمع أزيزَها المكتوم داخلَ جيب بذلتي، أنقذَني مِن فكرةِ الحُلم. فلا رسائل إضافية تأتي في الحُلمِ. الحُلمُ نفسُه رسالة، ولا ينبغي لأحدٍ أنْ يزاحِمَه. دارت رأسي كما لو أنّ القهوة كانت تحوي خَمرًا بالفعل أو مادةً مُسكِرة. ربّتَتْ بكفّها الرقيقة فوقَ كفّي الأيمن الذي كان مبسوطًا فوق المائدة. كانت لمستها شديدة الرقّة والحنوّ، رقةٌ افتقدتُها بعدَ وفاة رجاء، وحنوٌّ خفيفٌ كحلم الفَجر. لستُ مُتأكِدًا إن كانتْ إيزيس قد نهضتْ مِن جِواري لتدير المذياع، أم أنّ صوت الأغنية بدأ يعلو وحدَه، تدريجيًّا بسببِ الصمتِ الصحراوي الذي كان يلفّ المكان. كانت الأغنية نفسَها لوردة، "أنده عليك.. بالحب تجيني". بدأتْ أجفاني تثقل تدريجيًّا، وراحت رأسي ترتخي إلى الوراء لِتستَنِدَ على ظهر الكرسي الخشبي المُريح. طعمُ القهوةِ كان ما زال عالقًا على طرفِ لساني، لُكْتُ بقايا القهوة وفتحْتُ فمي ليتسربَ هواءُ الغُرفة داخلَه فيُحدِث تيارًا بارِدًا لذيذًا، أحسستُ نفسي مثلَ طفلٍ يتحلَّبُ حلوى النعناع.

فوقَ الجِدار الأبيضِ الأصمّ المواجِه لنا، تراقصَت ظلال أشخاصٍ لم أتبين مَلامِحَهم عن قُربٍ؛ أشخاصٌ خِلتني رأيتُهم يومًا ما، لا، بل عِشتُ معهم، أقارب وأصدقاء ومعارِف. أعرِفهم جيِّدًا. تتحركُ الظلالُ وكأنها في بروفة عرضٍ مسرحي. موسيقى أغنيات أحبّها..

وردة أيضًا.. "أنده عليك"، أغنية "عملِت إيه فينا السنين" .. وأغنية "حنين". أنوار تتألقُ وتنطفيء، وأصواتُ همهماتٍ بشرية تعلو وتخبو. في تلك اللحظة، كان النومُ قد تَمكّنَ مِن عينَي تمامًا، شعرتُ بتنميلٍ خفيف يغزو أطرافَ أصابعي، وبدأتْ جفوني ترتخي وأنا مستسّلم تمامًا لهذا الشعور. وبدأ العرض.

(الفصل الخامس)

حلمتْ.. أنا في منامي حلمت..

كلمات: عبد الرحيم منصور

الزمان: ١٧ سبتمبر ١٩٨٥

المكان: العمارة نفسها....

فوقَ سطحِ العمارة، شقة إيزيس..

- هل اتفقتم على الزواج يا إيزيس؟

- والله يا رجاء لم نتكلم في أية تفاصيل.... خيري موجود في القاهرة لمدة أسبوع واحد فقط، بعدَها سينجز أعمالًا في بورسعيد والإسكندرية، وسيسافِر بعدَها مباشرةً إلى أمريكا..

- أسبوع؟ لا أفهم..

- خيري ينتظِر ردًّا.. إذا وافقتُ على الزواج... كل شيء سيتم بسرعة.. وسنسافر معًا إلى نيوجيرسي... لم أقرّر بعد.

- نحنُ نتقدّم في العُمرِ يا إيزيس.. كلانا في منتصف العشرينات.... ألا ترغبينَ في الزواجِ؟.

-طبعًا أرغب مثل أية فتاة. لا تقلقي عليّ.. سأتزوج، أعدُكِ بالزواجِ على الفور حين أجد رِجلًا يرتاح له كياني.. أنا دودة كُتُب يا

رجاء.. تعلّمت مِن الكتب أنّ الزواج ليس حذاءً نرميه حين يضيق علينا، الحب الذي لا يدوّخنا، ليس حُبًا بل شقاءٌ مِن نوعٍ آخر، تحميه العادات والتقاليد البالية بقناعٍ سميكٍ، ولو نُزعت الأقنعة لوجدتِ معظم البنات المتزوجات لمجرد الزواج تعيساتٍ حزينات وشارِدات بسبب التسرّع والمظهرية الزائفة.. الكتب وسماع الموسيقى فوق السطح يؤنِسان وحدتي...

- يعني عاجبِك حالنا يا إيزيس؟

- لا تشغلي نفسكِ بي.. لستُ أنا المُهمّة.. أنتِ الأهم يا رجاء... ما شعورِك ناحية ماضي؟

- والله ما أنا عارفة.. ماضي يُبدي إعجابًا.. لا أعرِف ما السبب؟.

- ماضي شاب محترم يا رجاء... مُدرّس في الحكومة.. ولديه شقة في الزيتون.. وفوق كل هذا أعتقد أنّه يحبك..

- على إيه؟.

- لا تقلّلي مِن نفسِك أمامَه يا رجاء.. أنتِ غالية في نَظَرِه.. لا ترخّصي نفسَكِ..

- لا أعرِف.. إيزيس.. أنتِ أعزّ إنسانة في حياتي.. بل الوحيدة في حياتي كلها.. لديّ سرّ لا أستطيع إخبار أحدٍ به..

- سرّ!!

- أخشى أنْ أكونَ مثلَ عمّاتي.. عاقِر

- عاقِر؟؟

- عمّاتي الأربعة متزوجات منذ فترة.. كلّهن بدونِ أطفال.. مشكلة وراثية في عائلة المرحوم أبي.. أخشى أن تنتقلَ إليَّ..

- لا تُخبِري أحدًا..

- ضميري يا إيزيس... على العموم أنا راضية بكل ما قَسمَه الله لي.. أعلمُ تمامًا أنّ ماضي هو فرصتي الوحيدة في الزواج.. الرجُل الوحيد الذي أبدَى اهتمامًا وإعجابًا بي.. عندي ٣٠ سنة يا إيزيس.. مَن سيتزوّج موظفة درجة سادسة في مكتب تموين الضاهر..؟

- ماضي.. بالتأكيد..

- ومِن أين هذا التأكيد؟ حبيبتي.. هل عَقَدتِ له سِحرًا..؟ أنتِ مبروكة وبينكِ وبينَ الله عمّار.. لكنّ التأكيد شيء غريب.

- رجاء... هل سمعتِ الله يومًا يتكلّم؟

- لا طبعًا.. ومَنْ يقدِر؟

- ربنا يدخل قلب كلّ مخلوق.. يتأملّ القلوبَ.. القلبَ الراضي

والقلبَ الغضبان، القلب النائح على قدرِه والفَرِح بقسمَتِه.. ويُعطي كلّ قلبٍ ما يستحق، فتتحركُ الشفاه بلسانِ القلب.. الله يحبّ خَلقَه..

– مع أنني لا أفهمُ كلّ كلامِكِ..إلا أنني أؤمِن بكِ يا إيزيس.. أنا وراءكِ...لكن طمّنيني عليكِ... هل أخبرتِه شيئًا عنكِ؟ أقصد موضوع رأفت القديم؟.

– خيري أكبر مِني بكثير.. بخمس عشرة سَنة تقريبًا.. عنده خمسة وأربعون عامًا.. أرمَل.. تزوّجَ أمريكية مِن أصولِ إسبانية وتوفيّت منذ سنتين بالمرض الخبيث.. وتَركتْ له شركة بيع مراكب صيد ولنشات بحرية... خيري يبحث عن امرأة تشارِكه بقية حياته.. صحيح هو عملي جدًّا وقليل الكلام ..لكنّه صادِق ..أنا على الأقل أصدّقه، بالنسبة لموضوع رأفت، لمْ أخبِره شيئًا.. خيري يعيش في أمريكا منذ ربعِ قرن.. أصبحَ أمريكيًا في كلّ شيء.. الثقافة والعادات والتقاليد وأسلوب الحياة.. لا أظنّ أن موضوعًا مثلَ هذا سيهمّه.

– ولكنّه أكيد سيسألكِ ليلة الزفاف؟.

– خيري عقله أكبر مِن ذلك.

– على العموم ...ربنا يكتب لك الخير يا حبيبة قلبي.. لا أعرِف إذا رضي ربنا عني وتزوجني ماضي.. وتزوجتِ أنتِ مِن الأستاذ

خيري بيه.. كيف سأعيش..؟ ممكن أموت لو لم أركِ يومًا.. ادعي لي يا إيزيس.. ادعي لي ألا أكونَ مثل عمّاتي.. وألا أكسِر خاطرَ ماضي.. ده رجائي مِن الدنيا..

- ما يقدِر على القدرة إلا ربِنا.. سيبيها على الله..

***

الزمان: ٥ أغسطس١٩٨٥

المكان: العِمارة نفسُها.. منزل خال ماضي..

ماضي يَطرق بابَ شقة خالِه، يُفتَحُ البابَ ويدخل ماضي بعدَ أنْ يُصافِح خالَه.

- بدون لفّ ولا دوران يا ابن أختي.. رجاء بنت ناس وطيبة.. انت عايز واحدة تعيش معاك يا حبيبي.. بنات اليومين دول مش بتوع جواز.. بتوع نوادي وديسكوهات.. ثمّ إنك مش هاتتكلف كتير... عمّ رجاء مالوش طلبات كتير.. عايز يستّر البنت قبل ما يموت.. توكّل على الله يا ماضي.. أنا هاكلم سلامة أخوك الكبير ونتصل بعمّها علشان نشوف معاد الشبْكة... يا راجل ده جرام الدهب عيار ٢١ بـ١٥جم....

***

الزمان: ١٧ أكتوبر ١٩٨٥

المكان: العِمارة نفسُها.. شقة إيزيس فوق سطح العِمارة..

زينات وزغاريد، أغاني محمد فوزي ومحمد رشدي ومها صبري تُعاد مِن جهاز تسجيل ناشيونال كان في الأساس لنادر ابن أخي ماضي، جلبَه معه مِن السعودية.

كؤوس شربات ورد أحمر تدور على كراسي المهنّئين. كوشة يجلِس فيها ماضي ورجاء. ماضي يرتدي بذلة عريس سوداء أنيقة، ورجاء مثلَ القمرِ في ليلة تمامِه في فستان زفافٍ أبيضَ. إيزيس ترتدي بلوزةً بيضاءَ تسرّ الناظرين، منهمكةٌ بينَ ضبطِ طرحة صديقتها العروسِ وتسريحة شَعرِها البُنّي القصير، وتلبية أهالي رجاء الذين أتوا مِن البَليَنا، مسقط رأس أهل العروس. بعد أن انفضّ مولِد الفرح وانصرفَ العريسُ إلى عروسه، وهنّأت العروسةَ بعريسِها في عش الزوجية، انفَردتْ إيزيس بنفسها في ركنٍ بعيد فوق السطح وقد وضعت شَـالًا مِن الصوف الأسود فوقَ كتِفها اتقاءً لبردِ ديسمبر. أجهشتْ في نوبة بكاءٍ طويلة وهي تتأمل مِن سورِ السطحِ، مصابيحَ شققِ العِماراتِ المجاورة تنطفيء.. ليبدأ ليلٌ أبدي.

***

الزمان: ٢٥ ديسمبر ١٩٨٥

الوقت: الساعة الواحدة بعدَ منتصف الليل.

ماضي وإيزيس يَخرجان مِن محطة قطارات رمسيس، يسيران ببطءٍ ويدور بينهما حديثٌ هامِس...

- لا أعرِف لماذا أنا سعيدةٌ الآنَ وأنا إلى جِوارك يا ماضي.. لكن ضميري يقتِلُني.. منظرُ رجاء وهي توصيني عليكَ لأعتني بكَ لا يفارِقني.. أشعرُ أنني أطعنها في ظهرِها يا ماضي..

- وأنا أيضًا يا إيزيس... ابتسامةُ رجاء وهي تودّعنا في القطارِ ما زالت أمام عيني... لستُ أنا السببَ في ذلك.. أنتِ مَنْ ضحيتِ بنفسكِ مِن أجلِ صديقَتِكِ.. لستِ خائنةً يا إيزيس.. لقد ضحيتِ بحبّكِ مِن أجلها.

-لا، ما نفعله خيانة. أي قصة حبٍ خائنة تختلق لنفسها ألفَ عذرٍ ليقنع نفسها والآخرين أنها على صوابٍ.. الخيانة ليستْ وجهة نظر يا ماضي..

***

الزمان: ٢٠ يناير ١٩٨٦

المكان: العِمارة نفسُها.. شقة إيزيس فوق سطح العِمارة..

تُـرَى إيزيس تلملِمُ ملابِسها وتنزَع صورَ أبيها وأمّها مِن فوقِ الحائطِ، والشالَ الذي صنعته لحبيبها يومًا، لكنّه تزوجَ قبل أن تهديه الشال. تضع إيزيس أشياءها داخل حقيبتَي سفرٍ كبيرتيْن، تَخرج إلى السطحِ وتمشي إلى السورِ، لتُنادي سائقَ التاكسي الواقف أسفلَ العِمارة كي يصعدَ لحملِ الحقائب. تهبِط درجاتِ السلّمِ وهي تودّعُ كل طابقٍ على حِدة. تتوقف لحظاتٍ أمامَ بابِ شقةِ رجاء، تلمسَ شُرّاعةَ البابِ بيديها. تُخرِجُ مفتاحَ شقتها، تهوى بالمفتاح فوق الزجاج مرةً.. مرتين.. ثلاثًا، حتى تتأكدَ أنها أحْدَثَتْ شَرْخًا في قلب زجاجِ الشرّاعة. تضيء مصباحَ السُلّمِ، تنظرُ مِن الفتحة الرقيقة التي حدثتْ بفعل طرقاتها. تستطيع رؤية شيءٍ ما داخل الشقة.

السائق منتظرٌ أمامَ بابِ العِمارة. تفتح بابَ التاكسي، وتجلِس في الكرسي الخلفي.

"..اطلع على المطار يا أسطى مِن فَضلَك".

***

الزمان: ٢٠ ديسمبر ١٩٩٠

المكان: في أحدِ فصول الصف الثالث الثانوي بمَدرسة القبة الثانوية بنين، ماضي يُلقي حصةَ التاريخ:

"...منحوها أسماءَ كثيرة، كثيرةً جدًّا بعدد مَنْ وقَفَتْ إلى جِوارِهم، وآزَرَتهم في شِدّتِهم. سأحكي لكم عن إيزيس؟ إيزيس هي "العرش"، هي الربّة الأم، هي سيدة الأفقِ، هي روحُ الكونِ كلّه، هي الضياء المرشدةِ، تحرّكُ الهواءَ وتساعد على إعادةِ الحياةِ إلى أوزوريس، وقد استعانتْ إيزيس بكلّ طاقاتها الروحانية والربّانية كي تعيدَ الحياةَ إلى حبيبها. وإيزيس هي أرض مِصر التي تتلقى المياه الوفيرة بفضلِ فيضانِ النيل العظيم، واستطاعت إيزيس جمعَ جسد أوزيريس وإعادةَ إحيائه من خلال السحر (تقول الأسطورة إنها غنّت حتى عاد أوزيريس إلى الحياة)، فقام أوزيريس من موتِه. وبما أنّ اليوم هو ٢٠ ديسمبر، فسوفَ أحكي لكم اليومَ حكايةً حول عيد شجرة أوزير، حين كان يحتفلُ المصريون القدماء في أواخر شهر كيهك (أواخر ديسمبر) بعيد دفن أوزير، الذي يوافق بداية موسم الغَرس والإنبات في مصر، ففي هذا الوقت من كل سَنة يقوم الفلاحون بغرس بذور غلال الموسم القادم، وفي الوقت نفسِه يقوم الكهنة في أبيدوس بإقامة

طقوس تُحاكي أحداث أسطورة موت وبعث أوزير بطريقة أشبه بالعروض المسرحية ولكن في سياق طقس ديني . وكانت الأسطورة تتحدثُ حول القدرة الإلهية التي تبعث الحياة في البذور وتجعلها تنبت نفس القدرة الإلهية التي تبعث أرواح البشر بعد الموت".

(الفصل السادس)

ولا يصعب علينا إلا الفراق يا عنينا.. يا حبيبي
أيـــام عـلـيـنـا تـــعـــدي وتمـــرّ زي الـسـحـاب
كلمات: عبد الرحيم منصور

ناموس شتوي؟ مستحيل..

لا أعلم كم مضى مِن الوقت وأنا غَافٍ. أفقتُ مِن غفوتي على طنين ناموسةٍ مِن النوعِ اللزج الثقيل، تحوم حولَ أنفي، ثمّ أذُني. دِفء المكانِ ضاعَفَ مِن الخِدرِ الذي كان يغمرُ جسدي. فتَّحتُ عينَي بصعوبةٍ بالغة. لمحتُ إيزيس واقفةً أمامَ المدفأة التي على يميني وهي تتحدّث بصوتٍ خفيضٍ في تليفونها المحمول. أنهَت تليفونَها ووضعته داخل جيبِ البنطلون الجينز الأسود الذي كانت ترتديه. تذكَرتُ أنها لم تكن ترتديه منذ دقائقَ حين شَربنا القهوة. قلتُ في نفسي: لعلّها بدَّلَته. تحسّستُ جيبَ البذلة، وأخرجتُ تليفوني المحمول كي أتصّل بالسائق. كان التليفون جثةً هامِدة. لا يَضيءُ منطقًا ولا يُصدِر حتى نورًا ضعيفًا يطمئنني أنّه على قيدِ الحياة. فكّرتُ في وسيلة الوصول إلى الزيتون في هذا الوقتِ المتأخر، لابُدّ أنّ الساعةَ الآن قد تجاوَزَت العاشرةَ مساءً، وفي عُرْفِ الشتاء الديسمبري، تقريبًا الثانية بعدَ منتصف الليل. اقترَبَت

مِني إيزيس وهي تحمِل كوبَ شاي. جلَسَتْ إلى جِواري ووضعتْ الشاي أمامي، فأحطتُ الكوبَ بكفَّيّ، وجرعتُ بضعَ جرعات متتالياتٍ كي أفيق.

- لا تقلق يا ماضي.. لقدْ اتصلّتُ بالسائق.. ينتظِرك أسفلَ المنزل

- أي سائق؟.

- السائق الذي أقلّكَ إلى هنا...

- نعم؟؟!!

- اشرب.. اشرب.. سأشرحُ لكَ كلّ شيء الآن.

كانت إيزيس قريبةً مني، لاحظتُ أنّ ملامِحَها قدْ تبدّلَت تمامًا. كانت تضعُ فوقَ رأسِها آيس كاب رمادي مِن الصوف يغطي شَعرها كلّه، بل يكاد يصل لشحمتَي أذُنَيها. كانت ملامِحُها شاحبةً تمامًا، وشفتاها بيضاوين مِثلَ الثلجِ. أحسستُ أنّ ثمةّ إيزيس أخرى تجلِسُ أمامي، لولا أنني ميزتُ نبرةَ صوتِها الشفيفة، لقمتُ وفررتُ خارجًا مِن المكان.

سألتني بصوتٍ ضعيفٍ واهن:

- ماذا؟ هل خِفتَ مني؟.

تبدّلتْ ملامحي

- نعم ...أقصِد ..لا.. طبعًا. لكن..

- ماضي.. إذا حدّقنا في شيءٍ واحدٍ طويلًا، معتَقدين أنّه سيبقى على حالِه.. لن نراه على حقيقته..

- لا أفهم.. لو سمحتِ يا إيزيس.. ما الموضوع..؟ منذ أن أتيتُ إلى هنا وأنا في ألغازٍ وحِكَم وأمثال.. صورة غريبة.. أنام بسبب قهوةٍ ربما وضعتِ فيها مخدرًا أو منوِّمًا.. ما الذي يجري؟ عندي واحد وستون سَنة لا أقوى على ذلك.

- غضِبْتَ؟.

- آسِف.. خرجتُ عن شعوري.. لكن ضعي نفسَكِ مكاني..

- طالما وضعتُ نفسي مكانَكَ..

أدركَت إيزيس في هذه اللحظة أنني لن أحتملَ المزيد، وأنّ عليها الآن وفورًا أن تشرحَ لي كلّ شيء. كانت جالسةً إلى جِواري تمامًا، وكان طرفُ كتفِها الأيمن يلامِسُ طرفَ كتفيّ الأيسرَ، كأننا في سرادق عزاء مزدحمٍ ولا توجد مقاعد شاغرة. أمسكَتْ رُكبتَيها وأطلَقَتْ آهةً قوية، أهةَ ألمٍ حقيقي، ثم أرجَعَتْ ظهرَها إلى الوراءِ وبدأت تحكي:

"..لم أحتَج الذهابَ إليكَ يا ماضي.. أتيتَ أنتَ إليَّ مثلَ مُستقبَلٍ لا يستطيعُ أحدٌ الذهابَ إليه، المستقبلُ يأتي إلينا، فيصير ماضيًا بعدَ دقائق".

لا أظنّكَ تَذكرُ الليلةَ التي جاء فيها تليفون إلى المرحومة رجاء، ليبلِغها بوفاةِ خالتها الكبرى "وطنية"، كنا نجلِسَ فوقَ مائدة الطعامِ في صالة الشقة في الزيتون. أذكرُ كلّ شيءٍ، وكأنه جرى البارحة. لأول مرةٍ أذوقُ النبيذَ الأحمر، كانت ليلة ٢٥ ديسمبر، عيد ميلادي. كانت الساعة الثامنة تقريبًا، وكنا قد انتهينا مِن تناولِ الطعامِ، ورُحنا أنا ورجاء نرفعُ الصحونَ إلى المطبخ. حين رنّ جرس الهاتف في هذا الوقتِ المتأخّر، هُرِعَتْ رجاء لمعرفة المتّصِلِ وكأنها كانت تشعرُ أنّ ثمةَ شيئًا مُقبِضًا. تلقّت رجاءُ الخبرَ بوجومٍ شديد، كانت المرحومة وطنية خالتها هي الإنسانة الوحيدة التي تتصل بِها، وتطمئن عليها. حينَ أخبرَتني رجاء بوفاةِ خالتها، كنتَ أنتَ في شرفة الشقة تدخّن. رفضتْ رجاء رفضًا قاطِعًا أنْ أسافِرَ معها، كانت امتحانات نصف العامِ قد بدأتْ في المدرسة التي أعمل بها، والتي تعمل أنتَ بِها. وكانَ مِن المستحيل التغيّب أو الاعتذار بالنسبة لي ولك. هل تَذكر المشادّةَ البسيطة التي جرَتْ بينَكَ وبينَ رجاء؟ كنتَ تصّرُ على السفرِ معها.. وكّدتَ تكسر طقم الصيني الذي كان فوقَ مائدة الطعام بسبب إصرارِ رجاء على السفرِ وحدَها. أعدّت رجاء حقيبةَ سَفرٍ صغيرة، وارتدتْ

كافة المعاطِف الشتوية الممكِنة. نزلْتَ أنتَ إلى محطة رمسيس لقطع تذكرة لرجاء إلى أسيوط، وكان موعِد أول قطار في الواحِدة بعدَ منتصف الليل. رجِعتَ بالتذكرة، وملابِسك مبلّلة تمامًا مِن ماء المطر، الذي كان يهطل بغزارةٍ تِلكَ الليلة. كانت ليلةً غريبة. دخلتُ أنا إلى المطبخِ وأعددتُ شايًا وأحضرت بقايا قالب الكيك الذي أعدّته رجاء لنا، ولم نتناول مِنه شيئًا. كانت رجاء تجلِسُ واجِمةً فوقَ الكرسي الخشبي الملاصق لبابِ الشقّة، تنتظركَ حتى تبدّلَ ملابِسكَ. طلبَتْ مِني رجاء وأنتَ بالخارِجِ أنْ أظلَّ إلى جِوارِكَ فترةَ غيابِها.

"..اعتبريه أخوكي الأصغر يا إيزيس.. ماضي لا يستطيع فِعلَ أي شيءٍ بنفسه.. لا تتركيه وحَدَه"

لم يكن أمامَنا سوى إيقاظِ رضا، ابن عمّ شحاتة البقال الذي أسفل منزِلِك مِن نومِه، وكان رضا الوحيدَ الذي يملِك سيارة ملاكي في المنطقة. كانت سيارة بيجو بيضاء واسعة، فقام بتوصيلنا إلى محطةِ رمسيس، ولم ينتظِرنا، لا أعلم لماذا؟ فكّرنا ساعَتَها أنه ربما اعتقدَ أننا سوف نسافِر معها. كنا على عجلةٍ مِن أمرِنا، نجري بسرعة ونتحدث بسرعة. تحرّكَ القطارُ حامِلًا رجاء إلى خالتها كي تدفِنها، وودتُ وهو يتحرّكُ لو قفزتُ داخِله، لأنني كنتُ أعلمُ ماذا سيحدث.

كانت الساعة قد تجاوَزَتْ الواحدة بعدَ منتصفِ الليل، وكانت

الشوارع خاليةً تمامًا مِن أي وسيلة مواصلات، أو حتى تاكسي. فطلبتَ أنتَ توصيلي إلى منزلي في الضاهر في هذه الساعةِ المتأخرة. الطقس كان رائقًا تمامًا بعدَ توقّف الأمطار. تجوّلنا وسط شوارع وسط البلدِ بلا غاية، أخذنا ندردش عن الحياة والدنيا والموت والعمل في المدرسة، تفاصيل عن زملاء العمل. لكنني أحسستُ بحدسي الذي لم يخِبْ يومًا، أنّ تفكيرنا الحقيقي كان مُنصبًا حولَ شيءٍ واحد؛ رجاء.

قبلَ وصولِنا إلى منزلي، طلبتُ مني مرافقتكَ للمرور على محل خمور بالقربِ مِن شارع كلوت بك. لمحتكَ تشتري زجاجة خمرٍ صغيرة، وضعتَها داخلَ بذلتِك. أخبرتَني أنّك ستفتقِد رجاء لمدة أيامٍ، وأنّ النبيذ أو الخمر هو الشيء الوحيد الذي يؤنِسُ وحدَتَك.

غشَيتنا سعادةٌ غريبة بسبب الهواءِ النقيّ الذي كان يضرِبُ أنوفَنا. لاحظنا في عيون بعضِنا حالةً مِن اللومِ وتأنيبِ الضمير. أحسستُ أنّ ثمةّ حوارًا داخليًّا يدور بيننا، حوارٌ لم تنطِقْ به الشفاه يومًا. طلبتُ مِنكَ الصعودَ معي إلى الشقّة لشربِ أي شيءٍ دافيء".

- تذكّرتُ كلّ شيء منذ دقائق.. حينَ دخلتُ دورة المياه.. تذكّرتُ أنني دخلتُ هذا المكان مِن قبل.

- أعددتُ لكَ قهوةً ليلتَها.

- ووضعتِ فيها منوّمًا أيضًا؟.

- إطلاقًا....زجاجة الخمر التي كانت في جيبِ بذلَتِك..

- سيناريو جاهز ولكنه فاشِل.... أنتِ جان دارك الملاك البريء الطاهِر... وأنا النذل المفترس... يا الله... إيزيس القديسة الطاهِرة.. البتول.. التي ضحّتْ بنفسِها وحبّها مِن أجلِ صديقتها الوحيدة.. هي ملكة الغواية.. يعني كلّ هذه السنوات كنتِ تتظاهرين بالنسكِ والتقشفِ والتقوى.. والآن تلقين باللومِ عليّ..؟ منتهى العدالة!!.

- فلترْمِني بحجرٍ يا ماضي إنْ كنتَ بلا خطيئةٍ.. أنا حَمَلْت ذنبي معي.. والآن دورك.

- لا أفهم؟.

- ليسَ هذا وقتَ حساب.. إنْ كنتَ تتحدث عن العدلِ.. فليحمِلْ كلّ واحدٍ ذنبَه، حينَها سوف يخلو العالَم مِن المُذنبين.

لاحظْتُ أنّ الكلمات كانت تَخرجُ مِن فمّ إيزيس بصعوبةٍ. كانت قد بدأت تسعل سعالًا متواصِلًا، وتُمسِكُ ركبيتها كلّ بضعِ لحظاتٍ، ثمّ تَخرجُ منها آهاتٌ قوية. بدا على ملامحها الإجهاد التام، شاخَتْ مِئة سَنة عما كانت عليه منذ ساعةٍ، وكأن الاعتراف، الذي انتَوَتْ قَصّه على مسامعي، كان مثلَ مقصٍ يأكل مِن روحها وعُمرِها. أحسستُ أنني

قسوتُ عليها في الحديث. غير أنّها برغم كلّ شيء، كانت ما تزال على حالِها. إيزيس..القوية الصلبة..التي لا يهزمها شيء.

سمعتُ صوتَ نقر الأمطار فوقَ زجاج نافذة الصالة، سألتها إنْ كانَت تريد شيئًا، فقالتْ.. لو سمحت اسمع القصة إلى نهايتها:

"..جرى ما جرى في تلكَ الليلة، لا أعفِي نفسي مِن أية مسؤولية ولا أنني شعرتُ بضعفٍ شديدٍ أمامك. كان هناك صوتٌ قوي يَصدح داخلَ روحي أنني أخون أعزّ صديقاتي، أختي، بل إنني أهدِمُ بيدي كلّ ما خطّطته لكي تتزوجا.

- وهذا ما لا أفهمه يا إيزيس؟ كان في وُسعِنا الارتباط.. أنتِ تعلمِين إلى أي حدّ كنتُ شغوفًا بكِ.. وأنتِ أيضًا.. لكنّ صدَّكِ عني بعد تعرّفي إلى رجاء هو ما دفَع تفكيري لاتجاهٍ آخرَ...

- أخبريني بالتفصيل.. ماذا جرى في تلكَ الليلة؟

دَخَلَتْ إيزيس في حالةٍ صمتٍ قصير. لا أعلمُ إن كان هذا تَذكّرًا أم تأسّيًا على ما مضى. نهضتُ مِن مقعدي وجثوتُ بقربِها على ركبتي، ولمْ أحسّ ساعتَها بآلام المفاصل ولا الروماتيزم الذي لازمني الفترةَ الأخيرة.

قالت إيزيس:

- بقيتَ تتجرعُ مِن زجاجتِك حتى الرابعة صباحًا.. كنتُ متحرّجةً

منك.. لا أعرف هل أطردكَ مِن الشقة؟ أم أُدخِلكَ إلى سريري كي تنامَ. لم أعُدْ أذكرُ مَن بدأ بتقبيل الآخر، لا أذكرُ سوى أنني استسلمت حين تلامسَتْ شفتانا، وكانتْ الدموعُ تسيلُ على وجنتَي وأنا أتذكّر كلامَ رجاء وهي توصِيني عليك، وتقولُ لي: ".. لا تتركي ماضي وحدَه".

– وهذا ما يدفعُني للجنون كلما فكّرت فيه.. لماذا تركتِني أتزوّج رجاء....؟ لمْ أفهَم يومًا سببَ ذلك!.

– التضحية مِن أجل شخص تحبه لا تحتاج غالبًا إلى فهم، بل تحتاج إلى إحساسٍ... كان عليّ كسر هذه العلاقة.. لو لم تتزوجّكَ رجاء.. لماتتْ كمدًا...

– وأنتِ ماذا فعلتِ بعدَ زواجِنا..؟ بعد آخرِ مرةٍ يوم ٢٥ ديسمبر. اختفيتِ تمامًا...!

واصلَت إيزيس حكيَها، وكأنها لم تسمع كلمةً مما قلتُ لها. بدَتْ لي مثل جندي مكلّفٌ بإيصال رسالة في وقتٍ محددٍ، وليس لشيءٍ أنْ يوقِفَه.

– بعدَها تعرّفت إلى خيري الوكّال..الرجل الذي منحَ ابنكَ الذي رأيتَه اليومَ، اسمَه وثروتَه.

– مستحيل...عادل خيري.... مسيو عادل ابني... ده فيلم عربي قديم ولا هندي..

كانت إيزيس تتحدثُ دونَ توقّف، مُتَجَّنِبةً النظرَ نحوي. كانت تبدو تحتَ ضوء المدفأتيْن الهالوجين المضاءتيْن بقوةٍ، مثلَ طفلةٍ هَرِمةٍ.

"تعرّفتُ على خيري الوكّال سنة ١٩٨٤ تقريبًا، أي قبلَ سَنةٍ مِن زواجِكَ برجاء. كانت المعرفة بمحضِ الصدفة، حيث كان يزور أختَه التي تعمل مديرةَ المَدرسة التي أعملُ فيها. كان في زيارةٍ سريعةٍ إلى مصر، يُنهي فيها بعضَ الأوراق في جمارك بورسعيد. كنتُ أوقّعُ أوراقًا في مكتب مدام إكرام، حينَ دَخَل علينا. يبدو أنّه أُعجِبَ بي، وطلبَ مِن مدام إكرام مفاتحتي في موضوع الزواجِ. كان يعيش وحيدًا في أمريكا بعدَ وفاة زوجتِه ذات الأصول الإسبانية، وتَركَتْ له إرثًا ضخمًا: شركة تصنيع، قوراب بخارية، ولنشات بحرية، وسندات وأسهم. كان ثريًا جدًّا، إلا أنّه لم يكن يعيش حياةً طبيعيةً كما قالَ لي: لديّ الكثيرُ مِن المال، تنقصني سمراءُ طيبة مثلكِ، أختبِيء وراءها مِن السنين التي تجري ورائي". كانت علاقات خيري سيئةً بأهله في مصر، ماعدا مدام إكرام مديرة مدرستنا، كان الجميعُ يطمعُ في ثروته، ويريدُ تزويجَه مِن قريبةٍ أو صديقةٍ تلتهم مالَه. بدأنا نُكثِر مِن لقاءاتنا، وكان لدينا الكثير مِن الأمور المشتركة، كان يحبُ الكتبَ مثلي، والتاريخ، وموسيقي البلوز، وأكل السمكِ. وكانت له ابتسامةٌ حنون على الرغمِ مِن جديتِه الشديدة وقسوة ملامحِه. تحدّثنا في كلّ شيء، أخبرتُه أنني كنتُ أحِب رَجلًا آخرَ،

ولم يعلّق على الموضوع ولا بكلمة أو حتى بنظرةٍ تَحمل ريبة، وأخبرته أنني لستُ عذراء، فابتسمَ وقال كلمةً غريبة لم أنسَها يومًا: "..ليس عارًا أن نَسقطَ في الوحلِ يا إيزيس.. العارُ الحقيقي ألا نقومَ مجددًا وننفضُ هذا الوحل".

طلبَ مني الزواج، وكان يعيدُ عليّ الطلبَ كلّ خمس دقائق في كل موعد، وكنا نلتقي يوميًّا. كنتُ أشعرُ بتردّدٍ شديد، لكنه كان يعاوِد الكَرّة، يدعوني للخروج والتنزّه. وكانَ مِن الصعبِ عليّ وأنا وحيدة بعدَ فراق رجاء، مقاومَة شغفِ خيري بي. لم يكن الرجُلَ الذي حَلُمْتُ بحبه، إلا أنّه الرجل الذي كان يمثِل قاربَ نجاةٍ لنسيان الماضي. وبعدَ زواجِكَ مِن رجاء، أحسستُ أنني أدّيتُ مهمّتي على أكملِ وجه. صديقتي الوحيدة وأختي التي تبرّعتْ بدمِها لي يومًا، أصبحتْ مع رَجلٍ حقيقي، رجل يحبِها ويصونُها. ماضي.. لستُ ملاكًا يمشي على الأرض، أنا أنثى، لكن ما أجملَ أن تشعرَ بشعورِ الملائكة. لن تصدّقَ إذا قلتُ لكَ إنّ كل مشاعر الفرحة الحقيقية والحزنِ الحقيقي، اجتمَعتْ داخِلي وأنا أراكما في ثيابِ الزفاف. أنا وأنتَ ورجاء واحد.. صدّقني. بعد أسبوعٍ مِن مفاتحتِه إياي في موضوع الزواجِ، كان آخر يومٍ في السنة، ٣١ ديسمبر ١٩٨٥، انتظَرَني أمام باب المدرسة التي أعمل فيها، حامِلًا في يدِه خاتمًا مِن الماس، ودِبلةً مِن الذهب. قال إنه يعلم ما يريد أنْ يعلَمَه

عن ماضِيَّ: "..مات أبوكِ يا إيزيس، وقَبلَه رحَلَتْ أمّكِ، وتزوّجتْ صديقتكِ الوحيدة. لم يَبْقَ لكِ أحد.. صدّقيني يا إيزيس، في لحظةٍ ما علينا أنْ نبدأ حياتَنا... قدِّمِي استقالتكِ يا إيزيس إلى المَدرسة.. سوف أتحدث إلى إكرام لتسريع الإجراءات.. بدأتُ بالفعلِ في إجراءات التأشيرة والإقامة، ستنتهي إجازتي في ١٥ يناير القادِم. لو لم تتمكّني مِن إنهاءِ كلّ شيء، سأترك لكِ تذكرة طيران مفتوحة في مكتب مصر للطيران في شارع عَدلِي، عدِّلي التاريخَ الذي يُناسِبكِ..أنتظركِ.

ألبِسَني الخاتمَ الماسي والدِبلة، ثمّ قبّلَ جبيني، وتركَني، قائلًا: "..حتى إذا غيّرتِ رأيكِ.. سأظلّ أذكرِكِ.".وفي يوم ٢٠ يناير، سافرتُ إلى خيري في أمريكا، في ذلك اليوم كنتُ أعرِف أنني تركت ورائي أجملَ سنينَ عُمري.

– عجيب.. تَذكرين تاريخَ كلّ حدثٍ بدقةٍ عجيبة؟

– الماضي هو الذي يذكُرُني .. أكثرَ مما أذكُره.. ليس هذا هو المهم..

– ماذا؟

– المهّم أنني سافَرْتُ إلى أمريكا وأنا أحمِلُ في رحِمي... ابنَنا..

– ابن حرام

– لا يا ماضي..عادل كان الشيءَ الوحيدَ الذي ظلَّ يذكِّرني بِكَ وبِرجاء...

(الفصل السابع)

ليـــالينـــا .. ليـــالينـــا
وتـــاهـــت بـــيـــنـــا لـــيـــالـــيـــنـــا
وتـــاهـــت بـــيـــنـــا لـــيـــالـــيـــنـــا
مشينا وأدينا من غير أهالينا ولا حد بيسأل فينا
كلمات: سيد مرسي

مِن فتحةِ شُبّاك المنورِ في الصالة، تسلّلَ ضوءٌ فضيّ شاحِب. لم أصدّقْ أنَّ الفَجرَ قد طلعَ علينا ونحن نتحدّث. كانت إيزيس مُتماسكِةً بقوةٍ وصلابة عجيبتيْن، وتحكي بأقصى طاقةٍ لها، وبكلّ عَزْمِها، وكأنها تخشى عزرائيلَ الموتِ أن يباغِتها قبلَ أنْ تُكمِلَ حكايتَها.

أمّا أنا، فقدْ أحسست أنّ الكونَ يتهاوَى فوقَ رأسي، وغابَ عقلي بسبب تلكَ الحكاية الوهمية التي لا تُصدّق، غمَرَتني مشاعرُ متناقِضة: كانت حبكة القصّة الضعيفة تقِفُ حائلًا بيني وبينَ معرِفَتي بنفسي، كنتُ أعرِف نفسي جيِّدًا، وأدرِك كيف كنتُ شغوفًا بإيزيسَ آنذاك، بل وما زِلْتُ. كانت رغبتي فيها كامرأةٍ وأنثَى تتزايد كلّ يوم، إلا أنني كنتُ أداري تلكَ المشاعر وأخفيها أمامَها وأمامَ رجاء. مجرد رؤيتي لإيزيس كانت تشعِلُ داخلي رغبةً محمومة في عِناقها ولثمِ كلّ قطعةٍ

في جسدِها. هل كنتُ شيطانًا أنا الآخر؟ لم تكن إيزيس أفعى تتلوى أمامي، أو على الأقلّ لم تتعمد يومًا إغوائي ولا إثارَتي. وإلا لفَعَلَتْ. كانت هناكَ فُرَصٌ كثيرةٌ مواتية أن تفعلَ.

هل كنتُ أشتهيها كي أوقِعَها في فخٍ خبيث أثبتُ فيه لنفسي أنّ كل البشرِ على شاكلتي؟ شهوانيون؟ طامِعون؟ هل كنتُ أريد أن أنفضَ عنها أسطورةَ الناسكة البتول؟ هل كنتُ أريد إثباتَ حقيقة أنّي لستُ الوحيدَ الشرير، وأنّ البشر جميعَهم يحملون داخِلهم شياطين تختبيء في جلود نِعاج؟.

ولكن.. مَنْ يُصدِّقُ تلكَ الكذبةَ وهذه القصّة الخيالية؟ ولو كانت قصّتها حقيقية، لماذا فضّلَت البقاءَ صامِتةً تلك السنوات الطويلة؟ هل جاءت في نهاية العُمر، لتهدمَ حياتي؟!.

شعرتُ بصداعٍ عنيف يرجّ رأسي، كأن مطرقةً حجرية ثقيلة تهوي فوقَها لتهشّمَها آلاف القِطع، فيما كانت إيزيس تسعل باستمرار. حينَ شقشقَ النهارُ، بدأت ألاحِظُ بقعَ دمٍ سوداءَ ثخينة على كُمّ سترتِها السوداء. نهضتُ وسألتها إنْ كانَت تُريد أن أنقلها إلى غرفة نومِها كي تستريح. إلا أنّها رفَضَتْ بكل قوةٍ، وعلا فجأةً صوتُها وقالت:

- ماضي.. لقد نِمنا بما فيه الكفاية..علينا الآن أنْ نستيقِظ.. سأعِدّ

لنا شايًا أو قهوة.. لم يتبقَ الكثير على نهاية الحكاية. نَهَضتْ إيزيس بقوة، وكأنّ إكمالَ حكايتها صار هو المهمّة الوحيدة، بل الأهّم التي عليها إنجازها الآن، حتى لو كلّفها ذلكَ حياتَها. غابتْ إيزيس في المطبخ بِضعَ دقائق، ثمّ عادت حامِلةً صينية فوقها فنجانان مِن الشاي، وطبق مِن البقسماط السادة.

- لم أنسَ يومًا ما كنا نفطر عليه ثلاثتنا..رجاء وأنتَ وأنا.

".. في أمريكا، اكتشفتُ العالمَ الجديد؛ عالمًا عِشتُ وسطَه ثلاثين سنة، غريبةً، مطارَدةً بكوابيسِ وأسرار العالمِ القديم الذي لم يغادِرني يومًا. حينَ وصلتُ كان خيري ينتظِرني في مطار نيويورك. أقلّتنا سيارةٌ فاخرة بسائقٍ إلى منزِلنا في مدينة ترنتونبنيو جيرسي. كان المنزل مستقلًا على طريق البيوت الأمريكية، له حديقة خاصة وحمّام سباحة مشترك مع جارٍ إسباني وزوجتِه. وبدأتْ حياةٌ جديدة، لتختفي هذه المرحلة التي كُتبَ لها أن تختفي مِن حياتي إلى الأبد. تزوجنا زواجًا مدَنيًا ثاني يوم وصولي، وحَرصَ خيري على توثيق عقدِ الزواجِ في القنصلية المصرية في نيويوك ليضمنَ حقي في كل شيء. اقتصر أسبوع العسلِ على التنزّه في حدائق نيو جيرسي الشاسعة، والتردد على المطاعِم. لم يخبِرْ خيري أحدًا مِن مرؤوسيه في العملِ بزواجه إلا بعدَ فترةٍ، ولمْ أفهم سببًا لذلك. علِمتُ فيما بعدَ أن بعض موظفيه كانوا مِن المصريين الذين على علاقةٍ

ما بإخوته في مِصر، وخشي أن يتسرب خبر زواجه. كانت فترة وجودي وحيدةً في البيتِ طويلة، بسبب كثرةِ مشاغِل خيري وسفريات عملِ خيري الكثيرة المتكررة إلى كافة الولايات، بل إلى المكسيك وكندا أيضًا لتسويق منتجات شركتِه، ولافتتاح فروعٍ جديدة.

وحين أخبرته بحملي بعد ثلاثةِ أشهرٍ مِن وصولي، أبدى سعادةً متحفّظةً. أخبرتُه بكل قوةٍ وبساطةٍ أنني أريد طفلًا يؤنس وحدتي هنا، فأنا غريبة، وسأظلّ هكذا لفترة ليست قصيرة، بالرغم من أنّه أخبرَني بكثرة العرب هنا وسهولة عقد صداقات. كان يثِقُ فيّ ثقةً لا حدودَ لها. وأقسمتُ أنْ أظلَّ وفيةً له حتى يزولَ أثري مِن هذا العالَم. أنجبتُ "عادل". كان نسخةً طبقَ الأصلِ مِنكَ يا ماضي، ومِني أيضًا. لم يشُكْ خيري يومًا أنّه ليس ابنَه برغمِ عِلمه أنني لستُ عذراءَ، وكان ذلك يضاعِفُ مِن تأنيب الضمير يومًا بعدَ يومٍ، وسَنةً بعد سَنةٍ.

لمْ يكن خيري يعوّل كثيرًا على طبيعة مشاعري، كان يحبني حبًّا ناضِجًا، ولا يطلب شيئًا في المقابلِ سوى الصحبة والقليل مِن الاهتمام، لم يكن يشكو أبدًا، ولمْ يسألني يومًا عن شيء لماذا فعلتُه ولا لماذا تركتُه. وبمرورِ الوقتِ تولّد داخلَ قلبي شعورٌ بالحبِ الحقيقي تجاهَه، شعورٌ كان يعززه تعلّقه الشديد بعادل.

في بعضِ الأحيانِ، كنتُ ألتفِتُ إليه ونحن في المنزلِ، فأراه يرمِقني مِن إحدى زوايا عينيه بابتسامةٍ غامِضةٍ، كأنه يكتمُ شيئًا في قلبه ويتردد في الإفصاحِ عنه. كنتُ أشعرُ أنّه يعرِف حقيقةَ الأمرِ الذي أداريه عنه. كانت هذه النظرات تشعل حربًا باردةً داخِلي، حربًا تتراوح بين إفشاءِ سرّي وإخفائه. كنتُ أريد لعقلي ولضميري أنْ يستريحَا، إلا أنني كنتُ أحجِمُ عن ذلك في اللحظة التي أراه يلعبُ معَ عادل في حديقة المنزل، يضحكان معًا ويقلِّدانِ حركات "محمد علي كلاي" في الملاكمة، بينما عادل يحاول تقليدَ حركات رقصة "مايكل جاكسون" الشهيرة التي كانت ذائعةً تلكَ الأيام.

فتحَ خيري حسابًا بنكيًّا باسمي ووضعَ فيه مالًا أنفِقُ مِنه كيفما أشاء. إلا أنّني لم أكن مِن النوع الذي يطيق البقاءَ في المنزل، فقد خُلِقتُ للشقاء والمعافَرةِ مع الحياة، كما كانت رجاء تقول عنّي. وفي يومٍ، ذهبتُ أزورُ مقرّ شركة خيري. كان عادل ما يزال في الرابعة وتهيأ للالتحاق بالمدرسة. كان مكتب خيري أشبهَ بدواوين الحكومة في مصر، أوراقٌ متناثرةٌ هنا وهناك، لا يوجد أرشفة لأية ملفات، جدول الاجتماعات يحرّره بيدِه، أحيانًا وهو يتحدث في التليفون وقد ينسى مواعيدَ مهمّة، أو يعطي عميلَيْن موعدًا واحدًا في الوقت نفسِه. لم يثِقْ خيري بأية أجنبيةٍ قَطّ، ولم يعيّن سكرتيرة شخصية تنظّم له المكتب ولا

الأوراق لخوفِه وحِرصه الشديد غير المبرر، ثمّ اكتشفتُ بعدَ ذلك أنّه منذ عشر سنوات، عيَّنَ سكرتيرةً هندية، إلا أنّها كانت تسرّبُ كل أخبارِه إلى منافسِه، الذي كان عَرَبيًا هو الآخر. المهم، اقترحتُ عليه فكرة مساعدتِه لمدة ساعتيْن يوميًّا في تنظيم وأرشفة الملفات والأوراق والعقود، وترتيب المواعيد. كانت خبرتي القديمة كأمينة مكتبة في الرصّ والتبويب والأرشفة ما تزال شغفًا، قبلَ أنْ تكونَ مهنة.

تطوّر الأمر، وسارتْ الأمور على نحوٍ مُرْضٍ للغاية لخيري، وبعدَ ثلاث سنوات مِن إتقاني للغة الإنجليزية، طلبَ مني حضورَ كافةِ الاجتماعات الخاصة بالمفاوضات وإبرامِ العقودِ والتوزيع والمبيعات، وصِرْت غارقةً في العملِ حتى أحطتُ بكل أسرار الشركة ومعاملاتها. حققت الشركةُ نجاحاتٍ مذهلة وأصبحت المنتِج الوحيد للقوارب البخارية واللنْشَات في الولاية، وصِرنا نصدّر قواربَ بخارية ولنشات بحرية لأثرياء بدول الخليج الناشئة وقتَها، دُبَي، وأبو ظبي، والبحرين. وأثمرت الشركة عن شركتين، ثم ثلاثًا، ثم مجموعة شركات الوكّال.

مضتْ السنون سريعةً متلاحقة، انفصلتُ عن ماضِيّ القديم تمامًا. نمط الحياة وأسلوب المعيشة في أمريكا مُفزِعٌ وقاتِل. لم يَعُد يربِطني بمصرَ سوى حبلٍ غير مجدول، أو"سَبَت" معلّق في شُرفةِ عُمري، موصول برابطةٍ خفيةٍ وممدود بشقة الضاهر. كبرَ عادل، والتحق بكلية

الهندسة ونال الماجيستير في إدارة الأعمال. وكان "أبوه خيري"، يشرِكه في جميع أنشطة الشركة، ويكلّفه بالسفرِ لتحصيل الفواتير مِن العُمَلاء، ومتابعة الوِرَش التي تصنّع القوارب واللنْشَات، ويراقِب حسابات الوارد والصادر. وفي ليلةٍ، استيقظتُ في وقتٍ متأخرٍ مِن الليل بسبب كابوسٍ مخيف، فوجدتُ خيري مُنكبًّا على اللاب توب فوقَ مكتبِه الصغيرِ المواجه لسريرنا، وهو يُمسِكُ برأسه، وأنّاتٌ مكتومةٌ تَخرجُ مِنه. دنوتُ منه دونَ أنْ يشعرَ، فلمحتُه يعيد قراءةَ تقرير طبي. خبّأَ خيري عني موضوعَ مرضِه الشديد. كان مُصابًا بسرطان الكبد، وكان الورَم خبيثًا وفي مرحلةٍ متأخرةٍ. وفي الشهورِ الأخيرة رفضَ الخضوعَ للعلاجِ الكيماوي، قال لي عبارةً ذكّرتني بكلمةٍ قالها لي أبي قبلَ وفاتِه: "إنّ كل واحدٍ مِنا في هذه الدنيا يأتي وله مهمّةٌ واحِدة، عليه أن يؤديَها وينصَرِف".

- ماذا قال؟

- طلبَ مِني أن أعِدَه بأن أحافِظَ على أمواله وأن أعودَ إلى مصرَ بعد أن ينال "عادل" القسطَ اللازم مِن التعليم والخبرة.. طلبَ مِني أنْ أعود بكل شيءٍ إلى مصر.. كان يريد العودةَ ليموت ويُدفَنَ إلى جِوار أمّه وأخته، مدام إكرام الله يرحمها، والتي توفيّت بعد سفرِنا بعشرِ سنوات بعد إحالتها للمعاش.

وفي أيامِه الأخيرة، لازمَ المنزلَ ملازمةً تامة، وبقيتُ معه لا أغادِر المنزل طوال ستة أشهرٍ كاملة، لا أخرج إلا للضرورة القصوى. كان يقضي النهارَ في ترتيب أوراقٍ ما، وفي الاستماعِ إلى أغنيات "وردة".

بالنسبة له، كانت الحياةُ قد شارَفتْ على الانتهاء، ولمْ يَبقَ له سوى إغلاقِ النافذة.

- هل أحببتِه حقًّا يا إيزيس؟

كانت إيزيس تحدِّقُ نحو نافِذة شُبّاك المنور، كأنها تُراقِب تَسَلّلَ أولِ خيوطِ النهارِ إلى الشقة. دون النظرِ إليَّ، نهضَتْ مِن مكانها، ودَلَفتْ إلى دورة المياه، سمعتِ سعالًا شديدًا بالداخل، وحينَ خرجَتْ، جلسَتْ لتواصِل الحكي وكأنها في جلسة اعترافٍ رسمي.

سألتها: "إيزيس.. هل تخشينَ الإجابة؟ هل أحببتِه حقًّا؟.

"... آخر شهرٍ قبل وفاتِه كنت أخبِره كلّ يومٍ أني أحِبه. مِن فرطِ الألم، كان خيري يَبقَى جالِسًا طوالَ النهار فوقَ أريكة مِن الخيزران أمام البابِ الزجاجي للشرفة المواجهةِ لحديقة المنزل، ملتَحِفًا بأغطيةٍ كثيرة، مع أننا كنا في فصلِ الربيع، كنتُ أحرِصُ على عصرِ البرتقالِ المصري بيدي، وأن أشتريه له خصيصًا مِن سوبر ماركت مملوك لسيدة مصريةٍ، ثمّ أخبز الفطائر التي كان يحبِها. أدير أغاني وردة، وأجلِسُ إلى

جواره طوالَ النهار، لا، بل كنتُ أجلِسُ تحت قدميه، أدفئ باطن قدميه النحيلتيْن بفعلِ المرضِ حتى يأتي عادل مِن الشركة، فيعطي لأبيه تقريرًا موجزًا عما حدثَ وعن المبيعات. كان خيري يريد الاطمئنانَ أنّه أنجبَ رَجلًا، يمكن الاعتمادُ عليه، يصونَ مالَ أبيه، ويصون أمّه. في الليلة الأخيرة قبلَ وفاتِه، استيقظَ مِن النومِ قُبَيل الفَجر، كان جالِسًا نصفَ جلسةٍ على السرير، يتأملّ وجهي ويداعِبُ شَعري بكفّه التي صارت هزيلة بيضاءَ مِن جلسات العلاج الكيماوي. بكى وبكيتُ أيضًا. مسح دموعي وقال: "..داخل كلّ شرٍّ، هناك خير، وواجبنا الجميل أن نزيلَ الشرّ، كي يجدَ الخيرُ طريقَه". كانت وصيّته الأخيرة أن يُدفَن في مصر، إلى جِوارِ أختِه ووالدتِه في مقابر العائلة في الفيوم.

- وهل هذا سبب عودَتِكِ يا إيزيس إلى مصر؟

- تستطيعُ القول.. واحدٌ هام مِن الأسبابِ..السبب الأهمّ هو تنفيذ وصيتِه.

(الفصل الثامن)

مكتوب عليّا أعيش.. العُمر محرومة..

كلمات: عبد الوهاب محمد

كان الصبحُ قد استوى تمامًا حين انتهت إيزيس مِن قصّتها. نهضتُ وأطفأتُ المدفأتيْن، استأذنتها لدخولِ دورة المياه، كنتُ خائرَ القوَى، ليلة بدونِ نوم. تحاملْتُ على نفسي وجررتُ قدَمَيّ الثقيلتين نحو دورة المياه. حينَ خرجتُ، كانتْ إيزيس قد نهضتْ مِن مقعدها، وفتحتْ بابَ الشقة، ووقفتْ أمامَ البابِ، تنتظِرُ قدومي.

"..هل تحِبُ الوقوف بالخارج قليلًا..أمامَ سورِ السطح..نراقِبَ خروجَ الناس إلى أشغالهم..مثلما كنا نفعل نحن الثلاثة..؟".

سألتها: إيزيس... ما المرضُ الذي تخفينَه عني يا إيزيس...؟ هيئتكُ تقول إن الموضوع خطير!.

- لا تشغل بالكَ.. لستُ مهمّة الآن.. أنتَ وعادل..

- مِن فضلِكِ يا إيزيس..لا تفتحي معي موضوع عادل مِن جديد..

- كنتُ أراهِن طوال عُمري على قلبِك..يبدو أنني سأخسِر الرهان..

- قلبي ليس له علاقةٌ بالموضوع..

-.... ضميرك إذن!.

- ولا ضميري.. الأمرُ له علاقة بعبثية الموضوع مِن أساسِه.... غَمَرَني شعورٌ غامضٌ تجاه عادل حين زرتُه صباحَ الأمس في مقر شركته بالمهندسين، إلا أنّ الموضوعَ الآن له علاقة بي وبك.. حتى لو كان عادل ابني.. ما الفرق؟ عادل أمريكي، رَجل أعمال، سوف يقيس الأشياءَ بحسابات المكسب والخسارة، ثمّ إنه لا يعرِف سوى أبيه الذي تربّى في كنَفِه، وورثَ مُلكَه.. وموضوع بوليصة التأمين والمعاش الشهري أبو ١٠ آلاف جنيه، كان محاولةً لطيفةً لتعويضي... لكن عن ماذا؟ هو لا يعرِف شيئًا عن الموضوع؟ ولا أعتقِد أنكِ لمّحتِ له بشيءٍ!! أنا متعجِب فقط كيف أمكَنَكِ إقناعَه بهذا الأمر؟!.

أثناء حديثي لاحظتُ أنّ إيزيس كان تصوِّب بصرَها نحوي وكأنها تستجوبني بعينيها. كانت ترمِقني بنظراتٍ ثاقبةٍ كأنها تحاولُ زعزعةَ اليقين الهشّ داخلي، أو تحاول انتزاعَ اعترافٍ بعادل مني، كانت نظراتها تحمِل أيضًا معنى التوسل كي أعترِف أمامَها. ولكن ما قيمة الاعتراف؟ سواءٌ اعترفتُ بعادل أم أنكرتُه لن يغيرَ ذلك شيئًا!! لا أظنّ أن إيزيس

بهذا القَدرِ مِن السذاجة لتهدِمَ ما بَنَته مِن أجلِ لحظات نوستالجيا عابِرة.

تجاهلتُ نظراتِها المتوسلة، ومشيتُ نحو سورِ السطحِ. لمْ أكن قد تفحصته جيِّدًا بالأمسِ. اعتقدتُ أنهم جدّدوه أو أضافوا إليه صَفًا آخرَ مِن الطوبِ، غيرَ أنني وجدتُ السورَ على حالِه. وقفتُ أتأمل شوارع الضاهر وهي تستفيق لتستقبِلَ زخّات البشر. لم أستطِع معرفة الوقت؛ فساعتي متوقفّة منذ الأمس، والموبايل مغلَق. كنتُ أشعرُ بإجهادٍ حقيقي، إلا أنّ شيئًا ما داخلي كان يصونُ حواسي مِن الانهيارِ الكاملِ. في شُرفةٍ قريبةٍ بالعمارة المقابلة، رأيتُ أُمًّا شابةً تقفُ متدثّرَةً بشالٍ صوف وهي تشيرُ بالتحية لأطفالها أثناءَ ركوبهم سيارة ميكروباص مَدرسية لنقلِهم. ومِن مكان آخر لم أتبين مصدرَه، كان ثمة مذياع مفتوح يذيعُ "يا صباح الخير يا اللي معانا" لأُم كلثوم، إذن الساعة الآن السابعة صباحًا.

اقتربَت إيزيس مني وهي تحمل كوب شاي بلبن يتصاعد منه بخار ساخِن، وقفتْ إلى جِواري دونَ أن تنظرَ نحوي، واستندتْ بكوعيها إلى حافة السور الرخامية المدوّرةِ، تنظر إلى الشارع. أشارَتْ إلى المرأة التي رأيتُها قبلَ دقائقَ واقفةً تشيرُ بيديها لأطفالها. كانتْ المرأة ما تزال واقِفةً في شرفتِها تتابع بقلقٍ وشغفٍ أوتوبيس المدرسة وهو يتحركُ مغادِرًا الشارعَ الضيّقَ، ليغيبَ في زحمة الشارع الواسِع.

- تَحسدينها؟

- إطلاقًا.... كلّ ما في الأمرِ، أنني طالما تمنيّتُ شيئًا واحدًا في حياتي... أنْ أكونَ مثلَها.. شقة صغيرة لا تكون فوق السطحِ.. لستُ قديسةً يا ماضي، لكني لمْ أشعرْ يومًا بالفرحة إلا حين أراها في عيون الآخرين.

- هذا إصرارٌ خفيّ أنّكِ قديّسة، ولكن بشكلٍ دبلوماسي .. أمريكاني يعني.

- عادةً ما تولَد القديسة مِن قلبِ الدَنَس، وليس مِن الفضيلة.

- طالما حِرتُ فيكِ يا إيزيس.. كنتُ أسمع عنكِ كثيرًا أنّك ساحرة وزاهِدة ومُضحيّة... وكان يخالِجني شعورٌ مُريبٌ طوال الوقت، لا أعلم هل كان ذلك بسبب سوء نيّتي، أو لضعفِ إيماني بالمعجزاتِ في هذه الدُنيا.. صحيحٌ أنني أحببتُكِ، بل دعيني أقول إنني كنت أشتهيكِ كامرأة، كأنثَى، كنت أريد اختبار هذه الهالة مِن القَداسةِ لأعرف مدى صدقِها ومَدى زيفِها... كنتِ يا إيزيس بمثابة اختبار، أؤدّي أنا فيه دورَ المُمْتَحِن، لكن السحر انقلب على الساحر، وصِرتُ أنا المُمْتَحَن.. والنتيجة أمامَ عيني.. أوقَعتُكِ في حبائلي، وضعفتِ أنتِ أمامَي.

- هل كنتَ تختَبِرني أم تختبرُ نفسَكَ..؟ كل يوم تَعقد لنا الحياة

اختبارًا.. هل تعرف فيلم عبد الوهاب..(لستُ شيطانًا ولا ملاكًا).. هكذا الأمرُ.. كَمِلْتُ مِنكَ، وأخفيتُ الأمرَ عن زوجي خيري، أعتَرِفُ أنني خُنتُ صديقتي أيضًا، صديقتي التي ضحيتُ مِن أجلِها.

– وهذا ما لا أفهمه أيضًا؟ ما سبب هذه التضحية..؟ لا أرى لها سببًا واحِدًا منطقيًّا؟

– وهل حياتنا كلها تسير وِفقَ منطقٍ ما؟ لقد اعترفتَ لي أنكَ كنتَ تراني اختبارًا، أنا أيضًا طالما رأيتُ المرحومة رجاء اختبارًا..

– كيف؟ لا أفهم؟.

– كانت رجاء نموذجًا للإنسان الذي أُلقِي به في هذا العالَمِ الواسع الشرس، عاريًا ضعيفًا وحيدًا، إلا أنها كانت دائمًا صامدةً، مدفوعةً بقوةٍ خفيةٍ لا أفهمها، راضيةً بقدَرِها ونصيبها، تتلقى ضرباتِ الحياة وسخافات البشر وجشعَهم بقلبٍ هاديء ونفسٍ راضية، توفِّيَ أبوها، وهجرَتها عائلتها كي لا تُنفِقَ عليها، ثمّ ماتت أمّها، لم تكمِل تعليمَها، إلا أنّها لم تَشتَكِ يومًا.. لم تَحقِد على أحدٍ يومًا... زواج أو لا زواج.. مال أو فقر.. إحباط أو رجاء .. كل الأمور سواء، كان الناس يقولون عنّي إني ناسكة وزاهدة وقدّيسة، لم يلتفِت أحدٌ، بل ولا حتى أنتَ، أنّ القديس الحقيقي هو مَن يتصالحُ معَ نفسه، مَنْ يَنشدُ المتعة في التخلي

عن المُتَع كلها، عن المسرّات كلها، مَنْ يتحرّر مِن كلمة "أريد"، مَنْ يتحرّر مِن التفكير في "غدًا"، مَنْ ينتصِرُ على نفسه، أنا قدِّيسة زائفة.

هل تعرِف أنها كانت تقول لي إنها لم تظنّ يومًا أن تأخُّرَ الله عليها في الزواج هو إهمالٌ لها، بل اختبار كي تصمدَ وتصبِر..؟ آخِر كلمةٍ قالتها لي رجاء في شقتِكما ليلةَ وفاة خالتِها: الكلّ يلهثُ وراء لا شيء.

- بعدَ كلّ ما حكيتِه هل خذَلْنَا رجاء يا إيزيس؟.

- هذا هو السؤال.. هل خذَلناها أم خذَلنا أنفسَنا؟ لن أستطيعَ تبرئةَ نفسي، لكن بعدَ ما حدثَ بيني وبينكَ في هذه الليلة، أخذتُ عهدًا على نفسي أن أخرجَ مِن حياة رجاء تمامًا، يكفي ما حدث، خُنتها معَ زوجِها وكانت تعتبرني أختَها الوحيدة، لكنني صُنتُ وصيّتها آخر مرةٍ التقينا فيها في شقتكم بالزيتون؛ ألا أتركَك وحدَك، ابنك الذي حملتُه داخل أحشائي صار شابًا جميلًا وناجِحًا، لو كان الله مدّ في أجلِ رجاء ورأتْ "عادل"، لأحبّته مثلي تمامًا، وربما أكثر، أولّ شيء زُرته بعد وصولي إلى مِصرَ كان زيارتي لقبرها، أزورُ قبرَها كلّ أسبوع مرتين، أضعُ الزهور وأوزّع المال على روحِها الطاهرة، وأدعو اللهَ أن تسمعني، وأن تأتيني ولو في الحُلْمِ كي تغفرَ لي. كان صوت إيزيس قد أُنهِكَ تمامًا. نظرتُ إليها فوجدتها غيرَ قادِرةٍ على الاستمرار في الحديث، ولا حتى الوقوفِ

على حافة سور السطح. أحسستُ بقطراتِ مطرٍ خفيف تبلل وجهيْنا، ورأيت إيزيس ترفع كفيّها نحو السماء كأنما تريد جمْعَ المزيد مِن قطرات الماء في كفيها. كانت تتمتِمُ بكلماتٍ ضعيفة، وكأنها تدعو السماءَ دُعَاءً خفيًّا. أزالتَ الشالَ الصوف مِن فوقِ كتفِها، وفتحتَ أزرار قميصها القطني الأسود لتستقبل رذاذ المطر وكأنها تغتسِل. أشفقتُ عليْها، فالطقسُ بارِدٌ وجسدُها المريض لن يتحمّلَ ذلك. إلا أن سابق معرفتي بإيزيس تقولُ إنّها إيزيس، القوية التي لا تخاف الموت. تركتُها حتى ارتوَت مِن قطرات المطرِ. مسحتْ وجهَها وكفيّها كأنها تتوضأ، ثمّ مسَحَتْ وجهي ورأسي. سألتُها:

- هل هذا هو كل شيء؟

- نعم.. أريدُ الموتَ هنا.. وحدي..

- وعادل؟

- ربيّتُه أنْ يعرِف طريقَه وحدَه.

- أنتِ متعَبةٌ تمامًا.. سأبقَى معك.

- لا .. لستُ متعبة.. حينَ أشعر بثمرةِ تعبي، لا أشعرُ بالتعب.

- إيزيس.. لقد تحمّلتِ خسارة كل شيء.. الحبيب.. والصديقة..

– الخسارة جرحٌ، لكنها هي المكسب.. بعد رحلتي في الدنيا التي قارَبَتْ على الانتهاء، تعلّمتُ درسًا واحدًا.. أنَّكَ كلما تحمّلتَ الخسارةَ وضحيّتَ، كلما منَحَكَ القدَرُ فُرَصًا جديدةً، فرصًا للنجاة مِن أن تصبح متشائمًا، فرصًا لأن تكفّر عن خطاياكِ في حق مَن أسأتَ يومًا إليهم، فرصًا للمؤالَفة بين الأشياء المتنافرة في قوامٍ واحدٍ يحافظ على الخير والجَمال، كانت المرحومة رجاء تقول لي دائمًا ونحن نشرب الشاي في المكانِ نفسِه الذي تقف فيه أنتَ الآن:. "كلّنا جرحى وكلّنا نحاوِل".

– تمام.. فهمتُ يا إيزيس.. ولكن لماذا رتّبتِ لقائي بعادل على هذا النحو السينمائي؟!! كان في إمكانِكِ الاتصال بي مباشرة ..أو حتى القدوم إلى منزلي لتقولي ما تريدين.. لكن لماذا رسمتِ هذا السيناريو والحوار؟.. مندوبة مبيعات تأتي لشقتي، ورسالة غامضة في السَبَت.. كلام عادِل عن بوليصة تأمين على الحياة بمليون جنيه، وفوائد شهرية عشرة آلاف جنية؟؟!.

– لم أكن أستطيع تَرْكَ الحياة دونَ أن أدَعكَ ترى ابنَك يا ماضي.. هذا ابنُكَ.. قطعةٌ مِنْكَ.. ولكنني على يقين أنكَ لن تؤذيَه ولن تُفشي السرّ لأحدٍ.... أنا واثِقةٌ مِن ذلك.. وبالنسبة لموضوع البوليصة.. فالأمرُ محسوم... المالُ لكَ..

- لن آخذَ مليمًا..

- هذا حقك مِني.. هذه أموالي... كما أنّ هذا شأنك أيضًا يا ماضي.. عليّ أن أفارقَ الدنيا وضميري راضٍ عن كل ما صنعتُ..

- ولكن هذا كثير يا إيزيس.

- أودُّ مقابلةَ الموت وأنا راضية عن نفسي، ثمّ أنني بطبيعتي لا أطيقُ شعورَ أحدٍ بالغضب عنيّ، وإذا شعرتُ بشيء من ذلك فسرعان ما تتسلّلُ إلى قلبي كآبةٌ شديدة، وأفقد كل أملٍّ في الحياة، التي لم يتبقّ عليها الكثير... وحياة رجاء عندك يا ماضي.. ساعِدني أنْ أصلحَ أخطائي.

- إصلاحُ الخطأ لا يكون بالمال أبدًا يا إيزيس.

- طبعًا.. معكَ حق.. ولكن وأنا أحدّثكَ الآنَ.. وفي كل لحظة أغمضُ عيني وأفتحها، أرى أن كل شيء تافه، كل شيء تافه.. المال والشركات... أحبّ أن أموتَ وضميري راضٍ عني...

لم يعُدَ هناك المزيد كي يُقال. بدأتْ إيزيس القصةَ وأنهتْهَا وقتما شاءت. هكذا كانت إيزيس على الدوامِ. لم يَبقَ أمامي سوى الانصراف، لم تتركني أوصِلها إلى شقتِها. أوصَتني بنفسي وبزيارة قبرِ رجاء كل أسبوع كما كانت تفعل. دخلتْ إلى غرفتِها وأغلقتْ البابَ وراءَها. لاحظتُ أنها أطفأتْ أنوارَ الشقّة كلها.

هبطتُ درجاتِ السلّم بصعوبة، مررتُ على الطوابقِ التي رأيتُ حياتي الماضية تتجدد فوقَ جدرانِها. لم أعُدْ محتاجًا لتذكّر أي شيء. لكني حينَ مررتُ بشقة المرحومة رجاء، أحنيتُ رأسي ونظرت مِن خلالِ الشقّ الغائر في شُـرَّاعةِ البابِ الخشبي. رأيتُ نورًا رائقًا يتسلّل مِن هذا الشقّ الصغير لينيرَ الطابقَ كلّه.

أمامَ بابِ العمارة، وجدتُ السائقَ الذي أقلّني إلى هنا بالأمسِ، مرتديًا التيشيرت المطبوع بعلامة **Superman**، وفوقَه جاكت جِلدي أسوَد. فتحَ بابَ السيارةِ أمامي، فركبت السيارةَ دونَ أن نتبادلَ كلمة.

(الفصل التاسع)

ده كــــــــــــــــــــــان
كــــــان اســــــمــه حــبــيــبــي
كــــــان ده كـــــــــان
كــــــان يـــوم مـــن نـصـيـبـي
ضـحـيـت بـعـمـري مـعـاه مـشـوار
مـــشـــوار اســــمـــه الـحــيـــاة
وكـــان ..دي حـكـايـتـي مـعَ الـزمـان

كلمات: محمد حمزه

بينما أكتبُ سطورَ هذه القصّة في شقتي بالزيتون، تذكّرتُ حكاية كنتُ قدْ قرأتها يومًا في روايةٍ، لم أعدُ أذكر اسمها. لا أدري لماذا علِقتْ الحكاية بذاكرتي حتى هذه اللحظة، رغمَ أنني لم التفتُ إليها كثيرًا آنذاك. يبدو أن شيئًا ما يتسرّبُ إلى الذاكرة. كانت القصّة تحكي حكاية أحد التجّار وقد أرسلَ ابنه لمعرفة سر السعادة عند الرجل الأعمق حكمة من بين كل الرجال. مشى الصبي أربعين يومًا في الصحراء قبل أن يصل إلى مدخل قصر رائع على قمة جبلٍ. هناك يقيم الرجل الحكيم الذي كان يسعى للوصول إليه.

بدلًا من أن يلتقي رجلًا قديسًا دخل رجلنا إلى قاعة تنشط فيها حركة كثيفة، باعة يدخلون ويخرجون، وأناس يتحادثون في أحد الزوايا، وفرقة موسيقية تعزف أنغامًا خلابةً . وفيها طاولة مليئة بأشهى مآكل تلك المنطقة من العالم ... والرجل الحكيم يتحدث مع هؤلاء وأولئك، فاضطر الشاب إلى الانتظار ساعتين قبل أن يحين دوره بالكلام. أصغى الرجل الحكيم بانتباهٍ إلى الشاب وهو يشرح له سبب زيارته، ولكنه قال أنّه لا يملك وقتًا الآن ليطلعه على سرِّ السعادة، واقترح عليه القيام بجولة في القصر ثم العودة ليقابله بعد ساعتين.

"ومع ذلك أريد أن أطلب منك معروفًا" أضاف الرجل الحكيم وهو يعطي الشاب ملعقة صغيرة سكب فيها نقطتين من عصير البرتقال. "خلال جولتك أمسك جيِّدًا بهذه الملعقة ولا تدع القطرتيْن تسقطان مِنكَ".

بدأ الشاب يصعد وينزل كل سلالم القصر وعيناه مركزتان على الملعقة. وعاد بعد ساعتين إلى حضرة الحكيم، الذي سألَ الصبيّ: هل رأيت البُسُطِ الفارسية الموجودة في غرفة الطعام؟ هل رأيتَ الحديقة التي عملتُ عشر سنوات لإنجازها؟ هل شاهدتَ زهور الريحان الجميلة في غرفتي؟.

ارتبك الشاب، واضطر بأنْ يعترفَ بأنه لم يرَ شيئًا أبدًا؛ لأن همه كان ألا تقع نقطتا عصير البرتقالِ من الملعقة التي أعطاه إياها الحكيم. وقال للصبي: إذن عُدْ وتعرّفْ على روائع العالمِ الذي أعيشُ بداخِله، فلا يمكنكَ معرفةَ إنسانٍ حقّ المعرفة، إنْ لم تكن تعرفُ المنزل الذي يقيم فيه. حملَ الشابُ الملعقةَ وهو أكثر اطمئنانًا وعاد يتجولُ في القصر مُركزًا انتباهه هذه المرة على اللوحات المعلقة فوق الجدران والمرسومة على السقف. رأى الحدائق والجبال المجاورة وجمال الأزهار. ولدى عودته إلى الحكيم روى له بشكلٍ مُفصّلٍ كل ما رآه في جولته.

سألَ الحكيمُ الصبيّ: "لكن أين نقطتا عصير البرتقال اللتان وضعتهما لكَ فوقَ المِلعقة؟".

نظر الشاب إلى الملعقة فوجد أن نقطتي البرتقال قد سقطتا منها. قال الحكيمُ:

"هذه نصيحتي الوحيدة التي يجب أنْ أعطيكَ إياها: إنَّ سرَّ السعادةِ هو أن تنظرَ إلى كل نِعَمِ الدنيا دون أنْ تنس أبدًا نقطتي عصير البرتقال في الملعقة. الآن.. فهِمتُ ما كانت تقصِده رجاء حين فعلت مثلَ الحكيم، ولا أظنُّ أنّها قد قرأتْ الحكاية.

نِمتُ يومًا كاملًا بعدَ عودَتي مِن شقة إيزيس. وصلتُ منزلي في

العاشرةِ صباحًا. كان يومَ جمعة. لم أَنَمْ فوقَ الكَنبة مثلما اعتدتُ طوال السنتيْن الماضيتين. غمرَني شوقٌ غريب إلى حجرة نومِنا، رجاء وأنا. ارتميتُ فوقَ سريري بكاملِ ملابسي، رُحت أشمّ رائحةَ الوسائد والفِراش على السرير عسى أن يكون عَلِقَ به شيءٌ مِن رائحة رجاء. مضَتْ سنتانِ تقريبًا على وفاتِها، إلا أنني اكتشفت أن رائحة رجاء كانت ما تزالَ مختبئةً في أنسجةِ قماش الفرشِ والأغطية. نَدِمتُ كثيرًا على أنني أضَعتُ شهورًا طويلةً أطارِد سرابًا. أضعتُ سنوات طويلة اقتفي أثرًا وهميًّا، اسمه إيزيس. كنتُ في عَمَىً، لم أفِقِ مِنه إلا حينَ فارَقَتني رجاء، حينها أبصرتُ كلّ شيءٍ.

حين يرحل إنسانٌ عزيزٌ علينا، وشديد القرّب مِنا، نشعرُ بتحولاتٍ غريبة تطرأ على رؤيتنا للحياة؛ دقائق نتمنّي لو كنا قد قضيناها سويًا، مشاحنات نتمنّي لو كنا غضضنا الطرفَ عنها، كلماتٍ وددّنا لو قُطِعتْ ألسنتنا ولم ننطقْ بِها، بل وأفكار أنانية دنيئة نتمنى لو كنا رحلنا قبل أن تطوفَ بخيالنا. اكتشفتُ في تلكَ اللحظة التي قفزَ فيها عبقُ رائحةِ رجاء إلى أنفي -والتي ربما كانت رائحةً مُتَخَيَّلةً في ذاكِرتي فقط- أنني لم أحِب سوى رجاء، ولم أكن أريدُ سوى رجاء. فكّرت أنني لم أكن سوى أعمى يقِفُ في طابورٍ طويلٍ مِن العميان ينتظرُ نظارةً شمسيةً. كلّ شيءٍ كان واضحًا، لكني كنتُ مقيّدًا في أغلالٍ وهمية.

آهٍ يا رجاء... ما أسهلَ محبّة مَنْ يفارِقنا... المصباحَ ينيرُ الطريقَ للبعيدين أكثرُ مما ينيرُها للواقفين تحت نوره... وأنا ضال، فهل تعودينَ.

لم يكن أمامي سوى الجلوسِ على مائدة الطعام الصغيرة في صالة الشقة، وتدوين كل ما جرى على الأوراق. تذكّرتُ ما فَعلتُه منذ أسبوع. رُزَم الأوراقِ المتمتْرِسة في حجرة الصالون حتى السقف، كأنها تنتظر لحظةَ كشْف المحجوب، وفَضّ بكارةِ الأسرار. ذهبتُ إلى الغرفة، وأخذتُ أنقلُ على مدار ساعةٍ كاملة، رُزَمَ الأوراق الكائنة هناك. حتى غطّت مائدةَ الطعام تمامًا، لدرجة أنني فكّرتُ أنّ البنّورةَ الزجاجية قد تُكسَرُ تحت وطأةِ ثِقَلِ الأوراق. وجالَ بخاطِري هاتفٌ غريبٌ: هذا والأوراق فارِغة لم تَستقبِل بعدُ الكلام، فما بالُكَ حينَ تهرِقَ فوقها الأفكار والذكريات، بل والاعترافات أيضًا.

انكببتُ فوقَ المائدة. حتى هذه اللحظة، لا أعرِف إنْ كان ما حَكَته لي إيزيس بخصوص الليلة الطائشة، و"ابني عادل" والمعاش الشهري ذي العشرة آلاف جنيه، حقيقةً أم كذبة؟ ولكن لماذا تكذِب إيزيس؟ ما مصلحتها في اختلاقِ هذه الأكاذيب؟ كان في وُسعِها مساعدتي ماديًا -إنْ كان هذا هو غرضها مِن الأساس- بوسيلة أخرى! لن تعدَمَ إيزيس خُطَطًا. وما الذي ذكّرَها بي وبرجاء بعدَ هذه السنين كلّها؟ هل هي فرصةٌ أخيرةٌ للتطهّرِ مِن ذنبٍ اقترفَته؟ لو كان الأمرُ كذلك، لكان

الذنب مشترَكًا. أنا مَنْ اعتديتُ عليها تلكَ الليلة. أنا المُذنِب الحقيقي.. أنا مَنْ يتحمّل الذنبَ كاملًا.

كان مِن الأسهلِ عليّ الارتماءِ في أحضان قصّة إيزيس، وحَمْلِها منيّ، وموضوع المليون جنيه والمعاش الشهري. كان مِن الأسهلِ عليّ تصديق كلّ ذلك، لاسيما وأنّه منطقي، وأنا المستفيد، فلمْ تطلبْ مني إيزيس شيئًا. ولكنني طالما اخترتُ الطريق الصعب.

نهضتُ مِن مقعدي وذهبتُ إلى المطبخِ لإعدادِ فنجان قهوة. دفعتني رغبةٌ قويةٌ لتدوين كلّ ما جرى، ليس ما جرى مع إيزيس بالأمسِ فقط، وإنما كلّ ما جرى في حياتي، مُحاوِلًا الوصول إلى مغزى لها؟ مُحاوِلًا معرفة نفسي؟ هل كنتُ ذِئبًا في ثوبِ حَمَلٍ؟ هل كنتُ أشتهي إيزيس حقًّا لأثبِتَ لها ولنفسي المريضةِ أنّ الملائكة موطِنها السماء، وليس هذا العالَم؟ هل كانت إيزيس تكذِبُ؟.

قفزَتْ إلى ذهني فرضية أكثر سوءًا: هل اتفقَتْ إيزيس ورجاء على هذا السيناريو؟ ولماذا؟ ربما أحسَّت رجاء يومًا أنها خَدعتني حين أخفَتْ مرضَها قبل الزواج وتأكدها مِن استحالة الإنجاب؟ وارِد جدًّا!.

وبالتالي، حاوَلَت كلّ منهما التكفيرَ عن ذنبٍ اقترفتَه في حقي، رجاء

لأنّ ضميرَها عذّبها فأحبَتْ أن تستريحَ مِن عذابها، وهذا احتمالٌ أقربُ إلى الصحة. وإلا لماذا تركَتني وأصرَّتْ ألا أسافرَ معها إلى سوهاج في تلكَ الليلة الموعودة؟ بل وأصرّتْ على أن أوصِّلَ إيزيس إلى الضاهر! ولكن.. أليستْ رجاء أنثى مثل كل أنثى تَغار على زوجِها؟ ولكنّ إنْ كان هذا الاحتمال صحيحًا، كيف تمكّنتْ طوالَ هذه السنين الطويلة مِن إخفاء الحقيقة عني؟ لم تكن رجاء -رحمها الله- على هذا القدرِ مِن الدهاء. كانت إنسانةً بسيطةً! أم أنني لَم أعرِفها جيّدًا؟ تذكّرتُ أنني قد رأيتُ وسمعتُ شيئًا مِن هذا القبيل حين غفوتُ قليلًا في شقة إيزيس بالأمس؛ رأيت المشهدَ هكذا فوقَ الحائطِ الأبيضِ، رأيتها يتكلّمان بهذا الشأن؟ هل أصدّق أضغاث الأحلام؟.

وربما اختلَقَتْ إيزيس هذه الروايةَ الوهمية كي تُثبِتَ لي بعد ثلاثين سَنة أنها هي مَنْ أحبّتني بحقٍ، وأنها ما تزال الزاهِدةَ الناسِكة، التي وإن وقعتْ في الوحلِ، إلا أنها كانت قادرةً على النهوضِ مِن جديد لتصنعَ مِنَ الوحلِ لوحةً وردية طاهرة.

طوّقتني تلكَ الأفكار وأنا أراقِب فقاقيعَ هواءٍ بُنيّة صغيرة تطفو هنا وهناك فوقَ سطح "كنكة" القهوةِ الصغيرة. كانتْ كلّ فقاعة تظهر وتخبو مثل فكرةٍ جديدةٍ تنبتُ داخلَ عقلي. فقاعةٌ صغيرةٌ هي فكرة جديدةٌ، تختفي لتظهرَ واحدةٌ جديدة، ثم تظهرُ وتنطفأ، وتنطفأ

وتختفي، فأفكّرُ في أشياء وأستبعدُ أخرى. تذكّرتُ أيضًا الحكاية التي قرأتها حول نقطتي عصير البرتقال وسرّ السعادة. أفقتُ مِن سرحة اليقْظَان تلكَ على نسمة هواءٍ باردةٍ لتحملَ إلى أنفي أريج رائحة أزهار القرنفل التي كانت معلقّة على أفرير نافذة المطبخِ المفتوحة، ابتسمتُ وفهِمتُ الرسالة. أطفأتُ شعلةَ الغاز وخرجتُ مِن المطبخ وفي ذهني أشياءُ كثيرةٌ.

أغلقتُ كل مصابيحِ الشقّة. وأضأتُ شمعتيْن فوقَ مائدة الطعامِ. أقسَمتُ ألا أنهضَ مِن مِقعدي قبل أنِ أعرِف الحقيقة، ولن أعرِفَ حقيقة ما جرى إلا حين أدوّنُها. الحقيقةُ الواحدة التي كانت راسخةً داخِلي أنني لم أحِب سوى رجاء، وإيزيس أيضًا. ولا يهمّ مَنْ خدَعَتني؟ ربما أكونُ أنا مَن خدعتُ الجميع. أقول ربما. فكلّ الاحتمالات مفتوحة، وكلّ السيناريوهات مطروحة. ولنْ تغيّرَ النتيجة مِن أي شيءٍ.

مضَتْ أيامٌ طويلةٌ وأنا منكفيءٌ فوقَ مائدة الطعامِ الصغيرة، أتذكّرُ وأدوّن وأستحضِرُ مشاهِدَ وحكاياتٍ وحوارات وذكريات. أعدّ قهوةً وراء قهوةً، وأتنَسّمُ روحَ الريحان مِن شرفة نافذة المطبخ، أدخل دورةَ المياه، ثمّ أعودُ مِن جديد مدفوعًا بقوةٍ أزليةٍ للاستمرار فيما بدأتُ فيه. شعرتُ بدفءٍ غريبٍ يغمرُ صالةَ الشقّة. يبدو أنّ الذكريات كانت حاميةً تمامًا وهي تُهرَقُ فوق الأوراق والدفاترِ.

كتبتُ أوراقًا كثيرةً كثيرة. نفَدَت الأوراق كلّها. مستحيل.. لقد كتبتُ كلّ ما يُمكِن قولُه، وما لا يُمكن قوله. فذهبتُ إلى حجرةِ الصالون وجلبتُ كُتبَ التاريخِ القديمة، وجدتُ صفحاتِها فارغةً! ولِمَ لا؟ نحنَ مَنْ يكتبُ التاريخ. أخذتُ أدوّن فوقَها كل شيء، حتى نفَدتْ صفحاتُ الكتب كلّها، وما يزالَ في جعبتي الكثيرُ لأقولَه. متى أنتهي؟ متى أصل؟ لا أعرِف.. وهل أنشرُ ذلك؟ تذكّرتُ الكاتبةَ الكندية التي ألّفَتْ مخطوطًا لتنشرَه بعد مِئة سَنة. لا أدري ماذا أفعل بهذه الأوراق؟.

ما أعرِفُه أنني ينبغي لي أنْ أسدّدَ ديوني قبلَ أن يداهِمني الموتُ. وبما أنني مُفلِسٌ ولا أملكُ مِن الدنيا غير ملابسي وذكرياتي، فلم يَتبقَّ أمامي سوى التدوين على الأوراق. وحتى كتابة هذه السطور، لم أصِل إلى حقيقة ما جرى، ربما أصِل بعدَ قليلٍ، وربما لا أصِلُ أبدًا، وربما يباغتِني الموتُ فأنتبِه وأعرِف كلَّ شيءٍ دونَ مجهود. فالناس نيام، فإذا ماتوا انتبَهوا. كم مضى مِن الوقت؛ أيام.. أسابيع.. شهور.. أم ربما سنوات؟.

تركتُ مِقعدي ومشيتُ إلى غرفةِ نومِنا. ارتميتُ على السرير ونِمتُ. وبعد انقطاع أعوامٍ طويلة عن الأحلام، رأيتُ حُلْمًا: أنا ورجاء نمشي، متشابكي الأيدي، في شوارع الزيتون صباح يوم جمعة

شتوي ومشرقٍ لن يتكررَ أبدًا. كنتُ أرتدي بذلة كُحلية أعتزّ بها. كان الطقسُ بارِدًا ولكن يديّ دافئتان.

تتركُ رجاء يدي لتعبرَ الشارع إلى الجانب الآخر، ثمّ تشيرُ إليَّ بيدها وهي تبتسِم. ينتهي الحُلْم، لكني لم أستيقظْ بعدها.

انتظريني لحظة يا رجاء..أنا قادم إليكِ..

رجاء..

المحتوى

(الفصل الاول) 7

(الفصل الثاني) 21

(الفصل الثالث) 43

(الفصل الرابع) 63

(الفصل الخامس) 79

(الفصل السادس) 89

(الفصل السابع) 101

(الفصل الثامن) 111

(الفصل التاسع) 121

مكتبة نوميديا 198
Telegram@Numidia_Library

فكَّرتُ في رسْم مسوّدةٍ بتفاصيلِ الشّقة، وكأنني أخوضُ معركةً ضد النسيان، ثمَّ قادتني فكرةُ رسم المخطوطة إلى كتابة قصة حياتي، أو على الأقل كتابة مذكرات قصيرة، أحكي فيها بنفسي ولِنفسي؛ كي أجدِّدَ أنفاسي الميِّتة، لأحاربَ الاكتئاب، لأقِيَ جلدي صقيعَ شتاء ديسمبر وحدي في هذه الشقة، لأطمسَ العاداتِ القديمةَ وأخترعَ عاداتٍ جديدة، لأكتشِفَ لماذا يتصرفُ البشر على هذا النحو تجاهَ بعضِهم، لأستحضِرَ ذكرياتي مع مَنِ أحببتُ، لأرى نفسي، لأكتشِفَ كيف مضت الأيام.

رسم و تصميم الغلاف: نسرين محمود

وزارة الثقافة
الهيئة العامة لقصور الثقافة

المسابقة الأدبية
الفائزون
2018 - 2017

الثمن : جنيهان